

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَتِسْعُ عَشْرَةَ آيَةً، وَتَمَانِي عَشْرَةَ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ

[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿قَدْ﴾: نقيضة «لما» هي مثبت المتوقع و«لما» تنفيه، ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم، فخطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه، والفلاح: الظفر بالمراد، وقيل: البقاء في الخير، و«أَفْلَحَ»: دخل في الفلاح، كأبشر: دخل في البشارة، ويقال: أفلحه: أصاره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف: «أفْلَحَ»، على البناء للمفعول، وعنه: «أفْلَحُوا»، على: أكلوني البراغيث، أو على الإبهام والتفسير، وعنه: «أفْلَحَ»؛ بضمه بغير واو؛ اجتزأ بها عنها؛ كقوله: [الوافر]

فَلَوْ أَنَّ الْأَطْيَابَ كَانُوا حَوْلِي (١)

فإن قلت: ما المؤمن؟

قلت: هو في اللغة المصدق، وأما في الشريعة فقد اختلف فيه على قولين:

أحدهما: أن كل من نطق بالشهادتين موثقاً قلبه لسانه فهو مؤمن.

والآخر: أنه صفة مدح، لا يستحقها إلا البرّ التقيّ دون الفاسق الشقي (٢).

(١) فلوان الأطباء كانوا حولي وكان مع الأطباء الأساة

الأصل: كانوا حولي، فقصره وقصر «الأطباء» لضرورة الوزن وهم علماء الطب. والأساة: جمع آس، كالسعاة: جمع ساع، وهم المباشرون للعلاج من الأطباء، من الأسى كالثقي، بمعنى المداواة، والإساء - بالكسر -: الدواء، ولعله أصل الرواية، كما روي الشفاء، فحقه حرف الألف.

(٢) قال محمود: «اختلف في الإيمان على قولين، أحدهما: أن كل من نطق بالشهادتين موثقاً قلبه لسانه فقد اتصف بالإيمان. والآخر: أنه صفة مدح لا يستحقها إلا للبرّ التقيّ دون الفاسق الشقي

قال أحمد: والأول مذهب الأشعرية، والثاني مذهب المعتزلة، والموحد الفاسق عندهم لا مؤمن =

الخشوع في الصلاة: خشية القلب وإلحاد البصر - عن قتادة: وهو إلزامه موضع السجود، وعن النبي - ﷺ -: أنه كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت هذه الآية، رمى بصره نحو مسجده (٩٩٤)، وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة، هاب الرحمن أن يشد بصره إلى شيء، أو يحدث نفسه بشأن من شأن الدنيا، وقيل: هو جمع الهمة لها، والإعراض عما سواها، ومن الخشوع: أن يستعمل الآداب، فيتوقى كف الثوب، والعبث بجسده وثيابه، والالتفات، والتمطي، والتثاؤب، والتغميض، وتغطية الفم، والسدل، والفرقة، والتشبيك، والاختصار، وتقليب الحصا، روي عن النبي - ﷺ -: أنه أبصر رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لَوْ خَسَعَ قَلْبُهُ خَسَعَتْ جَوَارِحُهُ» (٩٩٥)، ونظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصا وهو يقول: اللهم، زوجني الحور العين، فقال: بشن الخاطب أنت! تخطب وأنت تعبث.

٩٩٤ - أخرجه الحاكم (٣٩٣/٢) من حديث أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزلت: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِعُونَ﴾ ﴿١﴾ فطأ رأسه.

ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، لولا خلاف فيه على محمد فقد قيل عنه مرسلًا ولم يخرجاه اهـ.

والمرسل رواه أبو داود في المراسيل رقم (٤٥) والبيهقي في السنن (٢٨٣/٢) كتاب الصلاة، باب لا يجاوز بصره موضع سجوده، والطبري في تفسيره (١٩٧/٩) رقم (٢٥٤١٤)، وذكره السيوطي في الدر (٤/٥) وعزاه لسعيد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وعزاه الزيلعي للواحد في أسباب النزول.

قال الحافظ: أخرجه الحاكم من رواية ابن سيرين عن أبي هريرة، لكن قال: «فطأ رأسه» وقال: صحيح إلا أنه روي مرسلًا اهـ. والمرسل أخرجه أبو داود والطبري عن ابن سيرين عن النبي - ﷺ - وقال: فيه نظر هكذا، وأخرجه الواحد في الأسباب من طريق ابن علية، عن أيوب. عن ابن سيرين موصولاً. انتهى.

٩٩٥ - عزاه الحافظ والزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف وكذا السيوطي في الدر (٥/٥) والسيوطي في =

= ولا كافر. ولو لم بين المعتزلة على هذا المعتقد تحريم الجنة على الموحد الفاسق بناء على أنه لا يندرج في وعد المؤمنين، لكان البحث معهم لفظياً؛ ولكن رتبوا على ذلك أمراً عظيماً من أصول الدين وقواعده. وقد نقل القاضي عنهم في رسالة الإيمان خطباً طويلاً، فنقل عن قدمائهم كعمرو بن عبيد وطبقته أن الإيمان هو التصديق بالقلب وجميع فرائض الدين فعلاً وتركاً. ونقل عن أبي الهذيل العلاف أن الإيمان هو جميع فرائض الدين ونوافله. ومختصر دليل القاضي لأهل السنة أن الإيمان لغة هو مجرد التصديق اتفاقاً، فوجب أن يكون كذلك شرعاً، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَنُ قَوْلِهِ﴾ مع سلامته عن معارضة النقل، فإنه لو كان لنبه عليه الصلاة والسلام ولو بينه لنقل لأنه مما يبتني عليه قاعدة الوعد والوعيد، ولم ينقل؛ لأن النقل إما آحاد أو تواتر إلى آخر مادته.

فإن قلت: لم أضيف الصلاة إليهم؟

قلت: لأن الصلاة دائرة بين المصلي والمصلى له، فالمصلي هو المنتفع بها وحده وهي عدته وذخيرته فهي صلاته: وأما المصلى له، فغني متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

اللغو: ما لا يعنيك من قول أو فعل، كاللعب والهزل وما توجب المروءة إلغاءه وإطراحه، يعني: أن بهم من الجد ما يشغلهم عن الهزل.

لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو؛ ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾

الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين: القدر الذي يخرج المزكي من النصاب إلى الفقير، والمعنى: فعل المزكي الذي هو التزكية، وهو الذي أراده الله، فجعل المزكين ٢/٣٣ فأعطين له ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه: فاعل، تقول للضارب: فاعل الضرب، وللقاتل: فاعل القتل، وللمركي: فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله والتحقيق فيه أنك تقول في جميع الحوادث: من فاعل هذا؟ فيقال لك: فاعله الله أو بعض الخلق^(١)، ولم يمتنع الزكاة الدالة على العين أن يتعلق

= الجامع الصغير رقم (٧٤٤٧ - منحة) كلهم للحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة وهو موضوع.

قال الحافظ: أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر في السادس والأربعين بعد المائة من حديث أبي هريرة وفيه سليمان بن عمرو وهو أبو داود والنخعي أحد من اتهم بوضع الحديث، وفي شرح البخاري لزين الدين ابن المنير: عن النبي - ﷺ - أنه قال لعائشة: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه». انتهى.

(١) قال محمود: «الزكاة تطلق ويراد بها العين المخرجة، وتطلق ويراد بها فعل المزكي الذي هو التزكية ويتعين ههنا أن يكون المراد التزكية لقوله (فاعلون) إذ العين المخرجة لم يفعلها المزكي، ثم ضبط المصدر على الإطلاق بأنه الذي يصدق عليه أنه فعل الفاعل؛ فعلى هذا تكون العين المخرجة مصدراً بالنسبة إلى الله تعالى، وكذلك السموات والأرض وكل مخلوق من جوهر وعرض، قال: فجميع الحوادث إذا قيل من فاعلها؟ فيقال: الله أو بعض الخلق» قال أحمد: ويقول السني: فاعل جميعها هو الله وحده لا شريك له، ولكن إذا سئل بصيغة مشتقة من الفعل على طريقة اسم الفاعل، مثل أن يقال له: من القائم؟ من القاعد؟ أجاب بمن خلق الله الفعل على يديه، وجعله محلاً له، =

بها فاعلون، لخروجها من صحة أن يتناولها الفاعل؛ ولكن لأن الخلق ليسوا بفاعليها؛ وقد
 أنشد لامية بن أبي الصلت: [من المنسرح]
 الْمُطْعِمُونَ الطَّعَامَ فِي السَّنَةِ الْأَزْمَةَ الْفَاعِلُونَ لِلزُّكُوتِ^(١)
 ويجوز أن يراد بالزكاة: العين، ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء، وحمل البيت على هذا
 أصح؛ لأنها فيه مجموعة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
 مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ آتَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾: في موضع الحال، أي: الأولين على أزواجهم، أو قوامين عليهن،
 من قولك: كان فلان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان؛ ونظيره: كان زياد على
 البصرة، أي: والياً عليها؛ ومنه قولهم: فلانة تحت فلان؛ ومن ثمة سميت المرأة فراشاً،
 والمعنى: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال، إلا في حال تزوجهم أو تسريحهم، أو
 تعلق (على) بمحذوف يدل عليه: (غير ملومين)؛ كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم،
 أي: يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم؛ فإنهم غير ملومين عليه، أو تجعله
 صلة لحافظين، من قولك: احفظ عليّ عنان فرسي، على تضمينه معنى النفي، كما ضمن
 قولهم: نشدتك بالله إلا فعلت معنى: ما طلبت منك إلا فعلك^(٢).

فإن قلت: هلا قيل: من ملكت؟

قلت: لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث^(٣) جعل

= كزيد وعمرو.

(١) لامية بن أبي الصلت. والأزم: الجذب، والأزمة: الشديدة المجذبة. والزكوات: جمع زكاة، تطلق
 على القدر المخرج من المال وعلى الإخراج، فالمعنى على الأول: المؤدون للزكوات. وعلى
 الثاني: الفاعلون لذلك الإخراج، والأول أوجه؛ لأن المصدر لا يجمع إلا بتأويل الأنواع أو
 المرات.

ينظر: البحر (٣٩٦/٦)، الدر المصون (١٧٣/٥).

(٢) قال السمين الحلبي: هذه وجوه متكلفة ظاهر فيها العجمة، قلت وأي عجمة في ذلك، على أن
 الشيخ جعلها متعلقة بـ «حافظون» على ما ذكره من التضمن وهذا لا يصح له، إلا بأن يرتكب جهماً
 منها، وهو التأويل بالنفي كنشدتك الله لأنه استثناء مفرغ ولا يكون إلا بعد نفي أو ما في معناه.
 انتهى. الدر المصون.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وقوله وهم الإناث ليس بجيد، لأن هم مختص بالذكر، فكان
 ينبغي أن يقول وهو على لفظ «ما» أو وهن على معنى ما قلت والجواب عنه أن الضمير عائد على =

المستثنى حدًا أوجب الوقوف عنده، ثم قال: فمن أحدث ابتغاء وراء هذا الحد مع فسحته واتساعه، وهو إباحة أربع من الحرائر، ومن الإماء ما شئت، ﴿فَأُولَئِكَ هُمْ﴾: الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

فإن قلت: هل فيه دليل على تحريم المتعة؟

قلت: لا؛ لأن المنكوحة نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صح النكاح.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٨)

وقرى: لأمانتهم، سمي الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال: ﴿وَتَحْفَظُوا أَمْنَتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧]؛ وإنما تؤدى العيون لا المعاني، ويحان المؤتمن عليه، لا الأمانة في نفسها، والراعي: القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعي هذا الشيء؟ أي: متوليه وصاحبه، ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله - تعالى - ومن جهة الخلق، والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩)

وقرى: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾.

فإن قلت: كيف كثر ذكر الصلاة أولاً وآخرأ؟

قلت: هما ذكيران مختلفان فليس بتكرير، وصفوا أولاً بالخشوع في صلاتهم، وآخرأ بالمحافظة عليها؛ وذلك ألا يسهوا عنها، ويؤدوها في أوقاتها، ويقيموا أركانها، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها، وبما ينبغي أن تتم به أوصافها، وأيضاً فقد وحدث أولاً؛ ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت، وجمعت آخرأ؛ لتفاد المحافظة على أعدادها، وهي: الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة، والعيدين والجنائز، والاستسقاء، والكسوف والخسوف، وصلاة الضحى، والتهجد، وصلاة التسيب، وصلاة الحاجة، وغيرها من النوافل.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠) ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١)

= العقلاء فقوله وهم أي العقلاء والإناث، انتهى. الدر المصون.

أي: ﴿فَأُولَئِكَ﴾: الجامعون لهذه الأوصاف، ﴿هُمْ الَّذِينَ﴾: الأحقَاء بأن يسموا وزائاً دون من عداهم، ثم ترجم الوارثين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾: فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر، ومعنى الإرث: ما مر في سورة مريم، أنت الفردوس على تأويل الجنة، وهو: البستان الواسع الجامع لأصناف الثمر، روي أن الله - عز وجل - بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وجعل خلالها المسك الأذفر، وفي رواية: ولبنة من مسك مدزى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الرياحان.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

السلالة: الخلاصة؛ لأنها تسَلّ من بين الكدر، و«فعالة»: بناء للقلة كالقلامة والقمامة، وعن الحسن: ماء بين ظهرائي الطين.

فإن قلت: ما الفرق بين من ومن؟

قلت: الأول: للابتداء، والثاني: للبيان؛ كقوله: ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾.

فإن قلت: ما معنى: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾: الإنسان نطفة؟

قلت: معناه: أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة، القرار: المستقر، والمراد: الرحم، وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها؛ كقولك: طريق سائر، أو بمكانتها في نفسها؛ لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت، قرئ: «عظماً فكسونا العظم»، و«عظماً فكسونا العظام»، و«عظماً فكسونا العظم»: وضع الواحد مكان الجمع لزوال اللبس؛ لأن الإنسان ذو عظام كثيرة، ﴿خَلَقْنَا آخَرَ﴾ أي: خلقاً مبيناً للخلق الأول مبينة ما أبعدها؛ حيث جعله حيواناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبيصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره - بل كل ٣٣/٢ عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه - عجائب فطرة وغرائب حكمة، لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح، وقد احتج به أبو حنيفة فيمن غصب بيضة فأفرخت عنده، قال: يضمن البيضة ولا يرد الفرخ؛ لأنه خلق آخر سوى البيضة، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾: فتعالى أمره في قدرته وعلمه، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: أحسن المقدرين تقديراً، فترك ذكر المميز؛ لدلالة الخالقين عليه؛ ونحوه: طرح المأذون فيه في قوله: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ

﴿بَقُلْتُمْ﴾ [الحج: ٣٩]، لدلالة الصلاة، وروي عن عمر - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - لما بلغ قوله خلقاً آخر، قال: فتبارك الله أحسن الخالقين (٩٩٦)، وروي أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي - ﷺ - فنطق بذلك قبل إملائه، فقال له النبي - ﷺ -: «أَكْتُبْ هَكَذَا نَزَلَتْ» ح، فقال عبد الله: إن كان محمد نبياً يوحى إليه، فأنا نبي يوحى إلي، فلحق بمكة كافراً، ثم أسلم يوم الفتح (٩٩٧).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

قرأ ابن أبي عجلة وابن محيصن: «لمائتون»، والفرق بين الميت والمائت: أن الميت كالحية صفة ثابتة، وأمّا المائت، فيدل على الحدوث، تقول: زيد مائت الآن، ومائت غداً؛ كقولك: يموت؛ ونحوهما: ضيق وضائق، في قوله تعالى: ﴿وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، جعل الإمامة التي هي إعدام الحياة، والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه: دليلين - أيضاً - على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع.
فإن قلت: فإذا لا حياة إلا حياة الإنشاء وحياة البعث.

قلت: ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة وهي حياة القبر، كما لو ذكرت ثلثي ما عندك وطويت ذكر ثلثه لم يكن دليلاً على أن الثلث ليس عندك - أيضاً - فالغرض ذكر هذه الأجناس الثلاثة: الإنشاء، والإمامة، والإعادة، والمطوي ذكرها من جنس الإعادة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

الطرائق: السموات؛ لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة، أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم، وقيل: الأفلاك؛ لأنها طرائق الكواكب في مسيرها: أراد بالخلق السموات، كأنه قال: خلقناها فوقهم، ﴿وَمَا كُنَّا﴾: عنها، ﴿غَافِلِينَ﴾: وعن حفظها وإمسакها أن تقع فوقهم بقدرتنا، أو أراد به الناس وأنه إنما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الأرزاق والبركات منها، وينفعهم بأنواع منافعها، وما كان غافلاً

٩٩٦ - حديث أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع فذكر الحديث.

تقدم في البقرة في قوله: ﴿وَأَعْيَدُوا مِن مَّقَابِرِ إِزْهَاتٍ مُّصَلِّ﴾.

قال الحافظ: وفي الباب عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع فذكر الحديث - وفيه: فنزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلُكَلَمٍ مِّن طِينٍ ﴿١٧﴾﴾، إلى قوله: ﴿خَلَقْنَا آخَرَ﴾. فقلت: تبارك الله أحسن الخالقين فنزلت. انتهى.

٩٩٧ - قال الزيلعي (٤٠١/٢): «غريب». وعزاه للثعلبي والواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس. قال الحافظ: كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وعزاه الواحدي إلى الكلبي. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - انتهى.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَقْدَرُ﴾: بتقدير يسلمون معه من المضرة، ويصلون إلى المنفعة، أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم، ﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ كقوله: ﴿فَسَلَكُكُمْ بَيْنَ بَيْعِ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقيل: جعلناه ثابتاً في الأرض، وقيل: إنها خمسة أشهر: سيحون نهر الهند، وجيحون: نهر بلخ، ودجلة والفرات: نهرا العراق، والنيل: نهر مصر، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة، فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معاشهم، وكما قدر على إنزاله فهو قادر على رفعه وإزالته، وقوله: ﴿عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾: من أوقع النكرات وأحزها للمفصل، والمعنى: على وجه من وجوه الذهب به وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتدار المذهب، وأنه لا يتعابى عليه شيء إذا أراد، وهو أبلغ في الإيحاء؛ من قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الملك: ٣٠]، فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفاها إذا لم تشكروا.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ وَشَجَرَةً

تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

خصّ هذه الأنواع الثلاثة؛ لأنها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع، ووصف النخل والعنب بأن ثمرهما جامع بين أمرين: بأنه فاكهة يتفكه بها، وطعام يؤكل رطباً ويابساً، رطباً وعنباً، وتمرّاً وزبيباً، والزيتون بأن دهنه صالح للاستصباح والاصطباح جميعاً، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من قولهم: يأكل فلان من حرفة يحترفها، ومن ضيعة يغتلتها، ومن تجارة يتربح بها: يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه، كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم، منها ترتزقون وتعيشون، ﴿وَشَجَرَةً﴾: عطف على جنات، وقرئت مرفوعة على الابتداء، أي: ومما أنشئ لكم شجرة، ﴿طُورِ سَيْنَاءَ﴾: وطور سينين، لا يخلو: إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإما: أن يكون اسماً للجبل مركباً من مضاف ومضاف إليه، كما مرى القيس، وكبعلبك، فيمن أضاف، فمن كسر سين سيناء، فقد منع الصرف؛ للتعريف والعجمة، أو التأنيث؛ لأنها بقعة، وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء، ومن فتح فلم يصرف؛ لأن الألف للتأنيث كصحراء، وقيل: هو جبل فلسطين، وقيل: بين مصر وأيلة، ومنه نودي موسى - عليه السلام - وقرأ الأعمش: سيناء على القصر، ﴿بِالذَّهْنِ﴾:

في موضع الحال، أي: تنبت وفيها الدهن، وقرئ: تنبت. وفيه وجهان.

أحدهما: أن أنبت بمعنى نبت؛ وأنشد لزهير [من الطويل]:

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ قَطِيناً لَهُمْ حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ^(١)

والثاني: أن مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت، وقرئ: «تنبت»: بضم التاء وفتح الباء، وحكمه حكم ٣٤/٢ أن تنبت، وقرأ ابن مسعود: تخرج الدهن وصنع الآكلين، وغيره: تخرج بالدهن، وفي حرف أبي: «تثمر بالدهن»، وعن بعضهم: «تنبت بالدهان»، وقرأ الأعمش: «وصبغاً»، وقرئ: «وصباغ»، ونحوهما: دبغ ودباغ، والصبغ: الغمس للالتئام، وقيل: هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان، ووصفها الله - تعالى - بالبركة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

(١) إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت
ورأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم
هنالك إن يستخولوا المال يخولوا
وفيهم مقامات حسان وجوههم
ونال كرام الناس في الجحرة الأكل
قطيناً بها حتى إذا أنبت البقل
وإن سئلوا يعطوا وإن يسروا يغلوا
وأندية ينتابها القول والفعل

لزهير بن أبي سلمى يمدح سنان بن أبي حارثة، والشهباء: الفرس يخالط سوادها بياض، شبه بها السنة المجذبة لكثرة بياض أرضها وخلوها عن سواد النبات والأمطار. أو لاختلاط نور الغنى فيها بظلمة الفقر. أجحفت بالناس: أي ذهبت بهم ومحقت عنهم آثار الغنى، والإسناد مجاز عقلي. والجحرة - بتقديم الجيم المفتوحة - السنة المجذبة وروي: في الجحرة. وأصلها بالتحريك، فسكونها لغة أو ضرورة وهي شدة الشقاء. ويجوز أن تقرأ بالضم بمعنى البيت، أي: ونال الأكل كرام الناس. ووصلهم داخل بيوتهم ليخلهم تلك السنة. وروى: كرام المال. والمعنى أن كرائم الأموال نالها التآكل والتنقص في تلك السنة لجذبها. ورأيت: جواب إذا. وذوي الحاجات: كناية عن الفقراء، حول بيوتهم: أي سنان وقومه. قطيناً: أي مقيمين، فهو يطلق على الواحد والمتعدد. وقيل إنه جمع، وروى قطيناً لهم: أي مساكنين لهم عند البيوت، وذلك كناية عن كرمهم، حتى إذا أنبت البقل: أي نبت النبات الرطب وظهر الخصب، فهناك: أي في ذلك الزمان إن يسألهم أحد أن يخولوه مالا كثيراً يخولوه: أي يولوه عليه. وإن سئلوا مالا قليلاً يعطوا السائل. وروى: إن يستخبلوا المال يخبلوا. بالموحدة، يستعر: أي منهم أحد إبلهم للانتفاع بألبانها وأوبارها زمن الجذب ثم يردّها: أعاروه، وإن سألهم الإعطاء من غير رد أعطوه فلا يردون سائلاً. وأن يسروا: أي لعبوا الميسر، يغلوا: أي يجعلوا الخطر غالباً كثيراً لعدم خوفهم على الفقراء لأن المال كثير بخلاف زمن الجذب، ويجوز أن يقرأ: وإن يسروا أي أعطوا بلا سؤال، يغلوا بالفاء. أي يتفقدوا الفقراء ويعطوهم، يقال: يسر كوعد: لعب الميسر، ويسر كترب وتعب: لأن ورق ورمق. وروى: يسألوا ويسروا بالمضارع. والمقامات: المجامع من الناس. وروي: وجوها. وعلى كل فالضمير للمقامات. والأندية - جمع الندي - بمعنى الكرم، على غير قياس، ينتابها: أي يجري عليها نوبة بعد نوبة قولهم وفعلهم. أو يتداولها قول الناس وفعلهم. ويحتمل أنها جمع ناد بمعنى متحدث القوم. أو ندى على فعل كذلك. ينتابها: أي يجيئها نوبة بعد نوبة القول والفعل، أي: الصالحات.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُسْقِيَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾
 وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قري: «تسقيكم»: بناء مفتوحة، أي: تسقيكم الأنعام، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تتعلق بها منافع من الركوب والحمل وغير ذلك، كما تتعلق بما لا يؤكل لحمه من الخيل والبغال والحمير، وفيها منفعة زائدة، وهي الأكل الذي هو انتفاع بذواتها، والقصد بالأنعام إلى الإبل؛ لأنها هي المحمول عليها في العادة، وقرنها بالفلك - التي هي السفائن - لأنها سفائن البر؛ قال ذو الرمة [من الطويل]:

سَفِينَةٌ بَرٌّ تَحْتَ حَدِّي زَمَامُهَا^(١)

يريد صيدحه^(٢).

(١) ألا خيلت مي وقد نام صحبتي فما نفر التهويم إلا سلامها
 طروقاً وجلب الرحل مشدودة به سفينة بر تحت خدي زمامها
 أنيخت فالنقت بلدة فوق بلدة قليلاً بها الأصوات إلا بغامها

لذي الرمة، يقول: خيلت مي، أي: بعثت خيالها وأرتني إياه، وسلمت علي في منامي. والحال أنه قد نام أصحابي، والصحبة كالعصبة والرفقة، ونسب النوم إليهم دونه: لأن نومه تهويم أي فتور وغفلة أول النوم فقط. والتهويم أيضاً: تمايل الرأس من النعاس، أو لأنه يتذكرها فكأنه لم ينام. ويروى: ذو الكرى بدل صحبتي، فما نفر التهويم وطرده عني إلا سلامها علي. ويروى:

ألا طرقتنا مية بنت منذر فما أرق النسيام إلا سلامها

وأرق: أسهر. والنسيام: جمع نائم، وقياسه نوام، فقلب ياء شذوذاً. والطروق: الإتيان ليلاً، وهو نصب على المصدر من خيلت، لتلافيها معنى. وقيل: الطروق - بالفتح - : الناقاة التي بلغت أن يطرقتها الفحل، وهو مفعول خيلت. والأوجه أنه حال من فاعله هذا، ولعله على التشبيه. وجلب الرحل - بالضم، وبالكسر - : عيدانه، أي: والحال أن عيدان الرحل مشدودة بها ناقة عظيمة كالسفينة. فاستعارها لها على طريق التصريح، وإضافتها للبر قرية للاستعارة. وفيه أنها في البر تقوم مقام السفينة في البحر. وأنها تقابلها، والزمام تجريد، أي: زمامها تحت خدي وأنا نائم. والبلدة من الناقاة: ما لاقى الأرض عند الإناخة، وتطلق على الصدر. والبلدة الأرض الصلبة. والبغام: صوت الظبي، أي: أنختها فالنقت عظاماً صلبة كالأرض، فاستعارها لها على طريق التصريح، فوق أرض صلبة حال كون تلك الأرض قليلاً فيها الأصوات إلا بغام الناقاة، أي: صوتها الشبيه بصوت الظبي، لأنه كان حينئذ. ومجيء الحال من النكرة بلا تأخير ولا نفي ولا تخصيص شاذ. ويروى: قليل - بالجر - على الصفة. وعلى كل فالأصوات فاعل له، ورفع المستثنى على الاتباع؛ لأن قليلاً في معنى النفي، أي: ليس فيها صوت إلا البغام. وقيل: «إلا» هنا بمعنى غير، فهي صفة للأصوات لأنه يشبه النكرة، ولما تعذر ظهور الإعراب عليها ظهر على ما بعدها.

ينظر: ديوانه ص (١٠٠٤)، وأساس البلاغة (سفن).

(٢) قوله «يريد صيدحه» أي: ناقته المسماة بصيدح. (ع)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٤﴾﴾
 فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ
 اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَضُّوا
 بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿غَيْرُهُ﴾: بالرفع على المحل، وبالجر على اللفظ، والجملة استئناف تجري مجرى
 التعليل للأمر بالعبادة، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم
 وخالقكم ورازقكم، وشكر نعمته التي لا تحصى عليها واجب عليكم، ثم تذهبوا فتعبدوا غيره
 مما ليس من استحقاق العبادة: في شيء، ﴿أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾: أن يطلب الفضل عليكم
 ويرأسكم؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، ﴿بِهَذَا﴾: إشارة إلى
 نوح - عليه السلام - أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله، أي: ما سمعنا بمثل
 هذا الكلام، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم
 يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر، وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾: يدل على أنهم
 وأباؤهم كانوا في فترة متطاولة، أو تكذبوا في ذلك؛ لانهماكهم في الغي، وتشمرهم لأن
 يدفعوا الحق بما أمكنهم وبما عن لهم، من غير تمييز منهم بين صدق وكذب؛ ألا تراهم:
 كيف جننوه وقد علموا أنه أرجح الناس عقلاً وأوزنهم قولاً، والجنة: الجنون أو الجن،
 أي: به جنّ يخبلون، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه إلى زمان، حتى ينجلي
 أمره عن عاقبة، فإن أفاق من جنونه وإلا قتلتموه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَن اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا
 جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ
 عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ
 مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَخَّرَنَا مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ
 خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

في نصرته إهلاكهم، فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي، أو انصُرني بدل ما
 كذبوني، كما تقول: هذا بذاك، أي: بدل ذاك ومكانه، والمعنى: أبدلني من غم
 تكذيبهم، سلوة النصر عليهم، أو انصُرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب، وهو ما كذبوه
 فيه حين قال لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الشعراء: ١٣٥]، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾:
 بحفظنا وكلاءتنا، كان معه من الله حفاظاً يكلؤونه بعيونهم؛ لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه

مفسد عمله، ومنه قولهم: عليه من الله عين كالثمة، ﴿وَوَحِيًّا﴾ أي: نامرك كيف تصنع ونعلمك، روي أنه أوحى إليه أن يصنعها على مثال جوجؤ الطائر، روي أنه قيل لنوح - عليه السلام -: إذا رأيت الماء يفور من التنور، فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور، أخبرته امرأته فركب، وقيل: كان تنور آدم - عليه السلام - وكان من حجارة، فصار إلى نوح، واختلف في مكانه؛ فعن الشعبي: في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان نوح عمل السفينة وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة، وقيل: بالهند، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: التنور وجه الأرض، وعن قتادة: أشرف موضع في الأرض، أي: أعلاه، وعن علي - رضي الله عنه -: فار التنور: طلع الفجر، وقيل: معناه: أن فوران التنور كان عند تنوير الفجر، وقيل: هو مثل؛ كقولهم: حمي الوطيس، والقول: هو الأول، يقال: سلك فيه: دخله، وسلك غيره، وأسلكه؛ قال [من البسيط]:

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَتَائِدِهِ^(١)

﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾: من كل أمتي زوجين، وهما أمة الذكر وأمة الأنثى، كالجمال والنوق، والحصن والرمالك، ﴿أُنثَيْنِ﴾: واحدتين مزدوجين، كالجمال والناقة، والحصان والرمكة، روي أنه لم يحمل إلا ما يلد وبيض، وقرئ: «من كل»: بالتنوين، أي: من كل أمة زوجين، واثنين: تأكيد وزيادة بيان.

جاء بعلی مع سبق الضار، كما جاء باللام مع سبق النافع؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِلرَّسُولِ﴾ [الصافات: ١٧١]، ونحوه قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقول عمر - رضي الله عنه -: ليتها كانت كفافاً، لا علي ولا لي.

فإن قلت: لم نهاه عن الدعاء لهم بالنجاة؟

(١) حتى إذا أسلكوهم في قتائده شلا كما تطرد الجمالة الشرذ
 لعبد مناف بن ربح الهذلي، يصف قوماً أغبر عليهم فدفعوا العدو حتى أدخلوه في قتائده، وهي ثنية بعينها، أو عقبه بعينها، أي: في طرائقها. وسلكه في كذا وأسلكه أيضاً كما هنا: أدخله فيه. وروي: سلكوهم أيضاً. وشلا: أي طرداً نصب بسلوكهم، لأن فيه معنى طردوهم: وإذا: حرف زائد لا جواب له، لأن البيت آخر القصيد كما في الصحاح. وقيل «شلا» هو جوابه، فهو نصب بمحذوف، أي: حبسوا بها حبساً، لكن لا يلائم التشبيه في قوله «كما تطرد» إلا أن يرجع لسلوكهم. والجمالة: جمع جمال وهو صاحب الجمل. والشرذ - بفتحتين -: الإبل المنتشرة، أو بضمين: جمع شرود كمروس.

وقد جاء «بعث» على ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١]، ﴿أَنْ﴾ مفسرة لأرسلنا، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاتِهِ الْآخِرَةَ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [٣٣] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَلِيتُمْ

فإن قلت: ذكر مقال قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكَ لَنَزِلُكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ﴾ [هود: ٥٣]، وههنا مع الواو، فأى فرق بينهما؟

قلت: الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال قومه؟ فقيل له: قالوا كيت وكيت، وأما الذي مع الواو، فعطف لما قالوه على ما قاله، ومعناه: أنه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل، وشتان ما هما، ﴿بِإِيقَاتِهِ الْآخِرَةَ﴾: بقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب؛ كقولك: يا حبذا جوار مكة، أي: جوار الله في مكة.

حذف الضمير، والمعنى: من مشروبكم، أو حذف منه؛ لدلالة ما قبله عليه، ﴿إِذْ﴾: واقع في جزاء الشرط، وجواب للذين قائلوهم من قومهم^(٢)، أي: تخسرون عقولكم وتغبنون في آرائكم.

(١) أرسلت فيها مضعباً ذا إقحام طبا فقيهاً بذوات الإيلام لعطاء السندي. ويقال: أصعب الجمل فهو مضعب، إذا صار صعباً لا يركب. والإقحام: الدخول في الشيء بلا تمهل ولا روية. ويروى: أرسلت فيها مقرماً ذا تشمام. وأقرمته: شوقته إلى الضراب. ونحوه: ذا تشمام، أي: يتشمم رائحة الناقة الناقفة للضراب فيعرفها. والطب - مثلث -: الطبيب الحاذق. وأبلمت الناقة إيلاماً: إذا ورم فرجها من شدة الشهوة إلى الضراب. والبلم - كسبب -: اسم منه. ويجوز أن ما هنا إيلام كاسباب، فالمعنى: أنه أرسل في الإبل فحلاً كريماً يقدم عليها من غير تلبث. أو يتشممها ويتعرفها حاذقاً عارفاً بالنوق الناقفة إليه. ويجوز أن المعنى: أرسلت في تلك القضية رجلاً كالجمل الشديد، ذا إقدام على الأمر بجرأة، فقيهاً عارفاً بمعالجة الأشياء الصعبة ذوات الأعضاء، وبحل مشكلاتها، فهو في غاية المعرفة والتجربة. ينظر: أساس البلاغة (فقه).

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ وليس واقعاً في جزاء الشرط بل واقعاً بين إنكم والخبر، وإنكم والخبر ليس جزاء للشرط بل ذلك جواب للقسم المحذوف، قيل إن الشرعية ولو كان التركيب الخبر جواباً لزم الفاء في إنكم، بل لو كان بالفاء في تركيب غير القرآن لم يكن ذلك التركيب =

﴿أَبْعَدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لَنَا تُوْعَدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيْكَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٨﴾

ثنى ﴿أَنْتُمْ﴾: للتوكيد، وحسن ذلك؛ لفصل ما بين الأول والثاني بالظرف، ومخرجون: خبر عن الأول، أو جعل: ﴿أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾: مبتدأ، و﴿إِذَا مِتُّمْ﴾: خبراً، على معنى: إخراجكم إذا متم، ثم أخبر بالجملة عن إنكم، أو رفع ﴿أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ بفعل هو جزاء للشرط؛ كأنه قيل: إذا متم وقع إخراجكم، ثم أوقعت الجملة الشرطية خبراً عن إنكم، وفي قراءة ابن مسعود: «أبعدكم إذا متم».

قري: (هيهات): بالفتح والكسر والضم، كلها بتنوين وبلا تنوين، وبالسكون على لفظ الوقف.

فإن قلت: ما توعدون هو المستبعد، ومن حقه أن يرتفع بهيهات؛ كما ارتفع في قوله [من الطويل]:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَأَهْلُهُ^(١)

فما هذه اللام.

= جائزاً إلا عند الفراء، والبصريون لا يجيزونه وهو عندهم خطأ، قلت يعني أنه إذا توالى شرط وقسم أجب سابقهما، والقسم هنا متقدم فينبغي أن يُجاب ولا يُجاب الشرط ولو أجب الشرط لاختلت القاعدة إلا عند بعض الكوفيين فإنه يجيب الشرط وإن تأخر وهو موجود في الشعر. انتهى. الدر المصون.

(١) ويروي البيت:

فهيها هيهات العقيق ومن به وهيها خل بالعقيق نواصله

لجري، يتحسر على بعد خليله. وهيها: اسم فعل بمعنى «بعد» وفتح تائه: لغة الحجاز. وكسرها: لغة تميم. وضمها: لغة بعضهم. وكرره للتوكيد وزيادة التحزن. والعقيق: الوادي الذي شقه السيل، وهو هنا واد بظاهر المدينة المشرفة. مرفوع على الفاعلية بالأول، والثاني لا فاعل له. وأجاز أبو علي الفارسي أنه من باب التنازع، فهو مرفوع بأحدهما، وضميره مستتر في الآخر، فهو توكيد مفرد على الأول، وجملة على الثاني. وأجاز ابن مالك أنه فاعل لهما لاتحادهما لفظاً ومعنى. وانظر كيف ذكر أولاً مكان الأحبة، ثم ذكر من فيه على العموم، ثم ذكر خله على الخصوص، وتدرج في ذلك حتى توصل إلى ذكر الوصال، وهو مقصوده الذاتي، فلله در العرب ما ألفتها صنيعاً، وأدقها عبارة، والخل - بالكسر -: الخليل، كالحب بمعنى الحبيب. ويروي: العقيق وأهله.

ينظر: ديوانه (٤٧٩)، والهمع (١١١)، وابن يعيش (٣٥/٤)، والخصائص (٤٢/٣)، والطبري (١٦/١٨)، البحر (٤٠٥/٦)، والدر المصون (١٨٣/٥).

قلت: قال الزجاج في تفسيره: البعد لما توعدون، أو بعد لما توعدون فيمن نون، فنزله منزلة المصدر^(١)، وفيه وجه آخر: وهو أن يكون اللام: لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد، كما جاءت اللام في: (هيت لك): لبيان المهيت به.

هذا ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه، وأصله إن الحياة: ﴿إِلَّا حَيَاتِنَا أَلَدُنِي﴾، ثم وضع (هي): موضع الحياة؛ لأن الخبر يدل عليها وبينها، ومنه: هي النفس تتحمل ما حملت، وهي العرب تقول ما شاءت، والمعنى: لا حياة إلا هذه الحياة؛ لأن «أن»: النافية دخلت على «هي»: التي في معنى: الحياة، الدالة على الجنس فنفثها، فوازنت «لا»: التي نفت ما بعدها نفي الجنس، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت بعض ويولد بعض، ينقرض قرن ويأتي قرن آخر، ثم قالوا: ما هود إلا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له، وفيما يعدنا من البعث، وما نحن بمصدقين.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَيْنِ ﴿٤٥﴾ فَالْخَذَتْهُمْ الصَّبِيحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَهُمْ غُشَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿قَلِيلٍ﴾: صفة للزمان، كقديم وحديث، في قولك: ما رأيت قديماً ولا حديثاً، وفي معناه: عن قريب، و(ما): توكيد قلة المدة وقصرها، ﴿الصَّبِيحَةُ﴾: صبيحة جبريل - عليه السلام -: صاح عليهم فدمرهم، ﴿بِالْحَقِّ﴾: بالوجوب؛ لأنهم قد استوجبوا الهلاك، أو بالعدل من الله، من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه: شبههم في دمارهم بالغشاء ٢/ ٣٥، وهو: حميل السيل مما يلي واسود من العيدان والورق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُشَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ٥]، وقد جاء مشدداً في قول امرئ القيس [من الطويل]:

مِنَ السَّيْلِ وَالْغُشَاءِ فَلَكَّةٌ مِغْزَلٍ^(٢)

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ وقول الزمخشري فمن نونه نَزَلَهُ منزلة المصدر ليس بواضح، لأنهم قد نُونُوا أسماء الأفعال ولا تقول أنها إذا نُونَتْ تنزلت منزلة المصادر، قلت: الزمخشري لم يقل كذا إنما قال فمن نونه نَزَلَهُ منزلة المصدر لأجل قوله أو بُعِدَ، فالتنوين علة لتقديره إياه نكرة لا لكونه منزلاً منزلة المصدر، فإن أسماء الأفعال ما نُونُ منها نكرة، وما لم ينُون معرفة، نحو صَهٍ وصِهٍ فقدر الأول بالسكون، والثاني بسكوت ما وقال ابن عطية طوراً يلي الفعل دون لام تقول هيهات مجيء زيد أي بُعِدَ، وأحياناً يكون الفاعل محذوفاً عند اللام كهذه الآية، لتقدير بُعِدَ الوجود لما تُوَعِدُونَ ولم يَسْتَجِدْهُ الشَّيْخُ من حيث قوله حذف الفاعل والفاعل لا يحذف ومن حيث إن فيه حذف المصدر وهو الوجود وإبقاء معموله وهو لِمَا تُوَعِدُونَ وهيهات الثاني تأكيداً للأول تأكيداً لفظياً، وقد جاء غير مؤكّد. انتهى. الدر المصون.

(٢) كأن ذرى رأس المخيم غدوة من السيل والغشاء فلكة مغزل =

بعداً، وسحقاً، ودفراً^(١)، ونحوها؛ مصادر موضوعة أفعالها، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها، ومعنى (بعداً): بعدوا، أي: هلكوا، يقال: بعد بعداً وبعداً؛ نحو: رشد رشداً ورشداً، و﴿لَقَوِيَ الظَّالِمِينَ﴾: بيان لمن دعى عليه بالبعد؛ نحو: ﴿هَيْبَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، و﴿لِمَا تَعُدُّونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾

﴿قُرُونًا﴾: قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: بني إسرائيل، ﴿أَجْلَهَا﴾: الوقت الذي حد لهلاكها وكتب.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بِمَعْصُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿تَتْرًا﴾ فعلى: الألف للتأنيث؛ لأن الرسل جماعة، وقرئ: «تتري»: بالتثنية، والتاء: بدل من الواو، كما في: تولج، وتيقور^(٢)، أي: متواترين واحداً بعد واحد، من الوتر وهو الفرد: أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: ٣٢]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الأعراف: ١٠١]، لأن الإضافة تكون بالملابسة، والرسول ملابس المرسل والمرسل إليه جميعاً، ﴿فَاتَّبَعْنَا﴾: الأمم: أو القرون ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾: في الإهلاك، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾: أخباراً يسمر بها ويتعجب منها، الأحاديث: تكون اسم جمع للحديث، ومنه: أحاديث رسول الله - ﷺ - وتكون جمعاً للأحداث: التي هي مثل الأضحوة والألعوبة والأعجوبة، وهي: مما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً، وهو المراد هنا.

= لامرىء القيس من معلقته. وذرى الجبل: أعاليه. والمخيم: أكمة بعينها. ويروى: المخيم. والغناء - بالضم مشدداً ومخففاً -: حميل السيل مما يلي واسود من العيدان والورق. والفلكة: بالفتح. والمغزل: مثلث. يقول: كأن أعالي تلك الأكمة من إحاطة السيل بها واجتماع الغناء حولها: فلكة مغزل في الاستدارة والارتفاع.

البيت. ينظر في جمهرة أشعار العرب: ٤٧، وديوان الشاعر ٢٥، والبحر ٣٩٣، والدر المصون: ١٨٧/٥.

(١) قوله «دفراً» في الصحاح «دفراً له» أي: نتنا. (ع)

(٢) قوله «كما في تولج وتيقور» التولج: كناس الوحش الذي يلج فيه. قال سيبويه: التاء مبدلة من الواو، وهو فوعل، كذا في الصحاح. وفيه أيضاً: التيقور، والوقار. وأصله: ويقور، قلبت الواو تاءً اهـ، فوزه «فيعول». (ع)

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عٰلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

فإن قلت: ما المراد بالسلطان المبين؟

قلت: يجوز أن تراد العصا؛ لأنها كانت أم آيات موسى وأولاهها، وقد تعلقت بها معجزات شتى: من انقلابها حية، وتلقفها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر، وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها، وكونها حارساً، وشمعة، وشجرة خضراء مشمرة، ودلوا ورشاه، جعلت كأنها ليست بعضها لما استبدت به من الفضل؛ فلذلك عطف عليها؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ويجوز أن تراد الآيات أنفسها، أي: هي آيات وحجة بينة، ﴿عٰلِينَ﴾: متكبرين؛ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣]، أو متطاولين على الناس قاهرين بالبغي والظلم.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِلشَّرِيِّنَ مِثْلًا وَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

البشر يكون واحداً وجمعاً: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ﴿لِبَشَرَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿فَأَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ﴾ [مريم: ٢٦]، و«مثل»، و«غير» يوصف بهما: الاثنان، والجمع، والمذكر، والمؤنث: ﴿إِنَّكَ إِذَا مِثَّلَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ويقال - أيضاً -: هما مثلاه؛ وهم أمثاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَشْأَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني: بني إسرائيل، كأنهم يعبدوننا خضوعاً وتذلاً، أو لأنه كان يدعي الإلهية فادعى للناس العبادة، وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ أي: قوم موسى التوراة، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: يعملون بشرائعها ومواعظها، كما قال: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣]، يريد: آل فرعون، وكما يقولون: هاشم، وثقيف، وتميم، ويراد: قومهم، ولا يجوز أن يرجع الضمير في (لعلهم) إلى فرعون وملته؛ لأن التوراة إنما أوتيتها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملته: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾﴾

فإن قلت: لو قيل آيتين هل كان يكون له وجه؟

قلت: نعم؛ لأن مريم ولدت من غير مسيس، وعيسى روح من الله ألقى إليها، وقد

تكلم في المهد وكان يحيي الموتى مع معجزات أخرى، فكان آية من غير وجه، واللفظ محتمل للتثنية على تقدير: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ مَرْيَمَ﴾: آية، ﴿وَأُنْتَهَى﴾: آية، ثم حذفت الأولى؛ لدلالة الثانية عليها، الربوة والرباوة في رائهما الحركات، وقرئ: «ربوة رباوة»: بالضم، ورباوة بالكسر وهي الأرض المرتفعة، قيل: هي إيليا: أرض بيت المقدس، وأنها كبد الأرض وأقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً: عن كعب، وقيل: دمشق وغطتها، وعن الحسن: فلسطين والرملة، وعن أبي هريرة: الزموا هذه الرملة رملة فلسطين؛ فإنها الربوة التي ذكرها الله، وقيل: مصر، والقرار: المستقر من أرض مستوية منبسطة، وعن قتادة: ذات ثمار وماء، يعني: أنه لأجل الثمار: يستقر فيها ساكنوها، والمعين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، وقد اختلف في زيادة ميمه وأصالته، فوجه من جعله مفعولاً أنه مدرك بالعين لظهوره، من عانه: إذا أدركه بعينه؛ نحو: ركبته: إذا ضربه بركبته، ووجه من جعله فعلاً: أنه نفاع بظهوره وجريه، من الماعون: وهو المنفعة.

﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما، وكيف الرسل؛ إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة، وإنما المعنى: الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك^(١) ووصى به؛ ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به، حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه، والمراد بالطيبات: ما حل وطاب، وقيل: طيبات الرزق حلال وصاف وقوام، فالحلال ٣٥/٢ ب: الذي لا يعصى الله فيه، والصافي: الذي لا ينسى الله فيه، والقوام: ما يمسك النفس ويحفظ العقل، أو أريد ما يستطاب ويستلذ من المأكول والفواكه؛ ويشهد له مجيئه على عقب قوله: ﴿وَأَوْسَتْهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [مريم: ٥٠]؛ ويجوز أن يقع هذا الإعلام عند إيواء عيسى ومريم إلى الربوة، فذكر على سبيل الحكاية، أي: آويناها وقلنا لهما هذا، أي: أعلمناهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا، فكلما رزقناكما واعملا صالحاً؛ اقتداء بالرسل.

(١) قال محمود: «هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما وكيف الرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة مختلفة وإنما المعنى الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك» قال أحمد: هذه نحة اعترالية، فإن مذهب أهل السنة أن الله تعالى متكلم أمرناه أولاً، ولا يشترط في تحقق الأمر وجود المخاطب، فعلى هذا قوله: ﴿كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ على ظاهره وحقيقته عند أهل الحق، وهو ثابت أولاً على تقدير وجود المخاطبين فيما لا يزال، متفرقين كما في هذا الخطاب، أو مجتمعين كما في زعمه، والمعتزلة لما أبت اعتقاد قدم الكلام زلت بهم القدم، حتى حملوا هذه الآية وأمثالها على المجاز وخلاف الظاهر. وما بال الزمخشري خص هذه الآية بأنها على خلاف الظاهر ومعتقده يوجب حمل مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وجميع الأوامر العامة في الأمة على خلاف الظاهر.

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾

قرئ: «وإن»: بالكسر على الاستثناف، وأن بمعنى: ولأن، وأن مخففة من الثقيلة، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾: مرفوعة معها.

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وقرئ: ﴿زُبُرًا﴾: جمع زبور، أي: كتباً مختلفة، يعني: جعلوا دينهم أدياناً، وزبراً قطعاً: استعيرت من زبر الفضة والحديد، و«زبراً»: مخففة الباء، كرسل في رسل، أي: كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم، فرح بباطله، مطمئن النفس، معتقد أنه على الحق.

﴿ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

الغمرة: الماء الذي يغمر القامة؛ فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمائيتهم، أو شبهوا باللاعبيين في غمرة الماء لما هم عليه من الباطل؛ قال [من البسيط]:
 كَأَنِّي ضَارِبٌ فِي غَمْرَةٍ لَعِبُ (١)
 وعن علي - رضي الله عنه -: في غمراتهم، ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: إلى أن يقتلوا أو يموتوا.

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ سَارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

سلى رسول الله - ﷺ - بذلك، ونهى عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره، وقرئ: «يمدّهم»، و«يسارع»، و«يسرع»: بالياء، والفاعل: الله - سبحانه وتعالى - ويجوز في: يسارع، ويسرع: أن يتضمن ضمير الممدّ به، ويسارع، مبنياً للمفعول، والمعنى: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي، واستجراً إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات، وفيما لهم فيه نفع وإكرام، ومعالجة بالشواب قبل

(١) ليالي اللهو يطبيني فأتبعه كأنني ضارب في غمرة لعب

لذي الرمة. وليالي: منصوب على الظرفية، واللهو: مبتدأ. وطباه يطبوه ويطبيه: إذا دعاه وجذبه. وطبي الناقة ثديها لجذبه عند الحلب. أي اللهو يدعوني في ليال كثيرة فأتبعه، كأنني سايح في لجة من الماء تغمر القامة، لعب فيها فهو خير ثان. ويروي: لعب، بالمعجمة من اللغوب وهو المشقة. وقيل: «ليالي» مضاف للجملته بعده، فهو ظرف لما قبله. وروي: اللهو بالجر. وتطبيني بالياء، فالفاعل ضمير الليالي.

ينظر: ديوانه ص ٣٨، ولسان العرب (ضرب)، (غمر)، (طبي)، وتهذيب اللغة ٨/ ١٢٩، ١٢ / ٢٠، وكتاب العين ٧/ ٣٣، وتاج العروس (ضرب)، (طبي)، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٤٦.

وقته، ويجوز أن يراد في جزاء الخيرات كما يفعل بأهل الخير من المسلمين، ﴿وَلِكُلِّ﴾ : استدراك؛ لقوله: (أيحسبون)، يعني: بل هم أشباه البهائم لا فطنة بهم ولا شعور، حتى يتأملوا ويتفكروا في ذلك: أهو استدراج، أم مسارعة في الخير؟

فإن قلت: أين الراجع من خبر أن إلى اسمها إذا لم يستكن فيه ضميره؟

قلت: هو محذوف تقديره: نسارع به، ويسارع به، ويسارع الله به؛ كقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَذَابِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، أي: إن ذلك منه؛ وذلك لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾: يعطون ما أعطوا، وفي قراءة رسول الله - ﷺ - وعائشة: «يأتون ما أتوا» (٩٩٨)، أي: يفعلون ما فعلوا، وعنهما أنها قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ وَهُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ يَخَافُ اللَّهَ؟ قَالَ: لَا يَا أُمَّةَ الصُّدُوقِ، وَلَكِنَّ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي وَيُصُومُ وَيَتَّصَدَّقُ، وَهُوَ عَلَىٰ ذَلِكَ يَخَافُ اللَّهَ أَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ (٩٩٩)، ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: يحتمل معنيين:

٩٩٨ - أخرجه الحاكم (٢/٢٤٦) من حديث عبد الله بن عبيد بن عمير الليثي عن أبيه قال: قلت لعائشة - رضي الله عنها -: يا أم المؤمنين، كيف كان رسول الله - ﷺ - يقرأ هذا الحرف: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ قالت: أشهد لسمعت رسول الله - ﷺ - يقرأها: «يؤتون». ثم قال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

٩٩٩ - رواه الترمذي (٣٢٧/٥) كتاب التفسير، باب «ومن سورة المؤمنون» حديث (٣١٧٥). وابن ماجه (٢/١٤٠٤) كتاب الزهد، باب التوفي على العمل حديث (٤١٩٨) والحاكم في المستدرک (٢/٣٩٣ - ٣٩٤) ثم قال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» اهـ.

وأحمد في المسند (٦/١٥٩ - ٢٠٥)، والبيهقي في الشعب (١/٤٧٧) رقم (٧٦٢)، والطبري في التفسير (٩/٢٢٥ - ٢٢٦)، رقم (٢٥٥٥٩ - ٢٥٥٦٢)، والبغوي في تفسيره (٣/٣١٢)، وذكره السيوطي في الدر (٥/٢١) وعزاه للفرابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

قال الحافظ: أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبه، والحاكم، والبيهقي في الشعب من رواية عبد الرحمن بن سعيد بن وهب الهمداني عن عائشة قالت: سألت فذكره. قال الترمذي: وقد روي عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - اهـ وهذه الطريق أخرجه الطبري بهذا الإسناد أن عائشة قالت: فذكره، وله عنده طريق أخرى عن =

أحدهما: أن يراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها.

والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا المنافع ووجوه الإكرام؛ كما قال: ﴿فَقَالَتْهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿وَمَا آتَيْنَهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]؛ لأنهم إذا سورع بها لهم، فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها، وهذا الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدمة؛ لأن فيه إثبات ما نفى عن الكفار للمؤمنين، وقرئ: «يسرعون في الخيرات» ﴿لَمَّا سَبَقُونُ﴾ أي: فاعلون السبق لأجلها أو سابقون الناس لأجلها، أو إياها سابقون، أي: ينالونها قبل الآخرة؛ حيث عجلت لهم في الدنيا^(١)، ويجوز أن يكون: (لها سابقون): خيراً بعد خبر، ومعنى (وهم لها): كمعنى قوله [من الرجز]:

أَنْتَ لَهَا أَحْمَدُ مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ^(٢)

عائشة فيها ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. وقوله وهو في قراءة النبي - ﷺ - وعائشة (يأتون ما أتوا): كأنه يشير إلى هذا الحديث، وأخرج منه ما أخرجه الحاكم من طريق عبد الله بن عمير عن أبيه أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ كيف كان - ﷺ - يقرأها يؤتون: يأتون أو يؤتون؟ قالت: أيهما أحب إليك؟ قال: الذين يأتون ما أتوا. قالت: أشهد أن رسول الله - ﷺ - كان يقرأها، وكذلك أنزلت. وفي إسناده يحيى بن راشد وهو ضعيف. وله طريق أخرى، عند أحمد من طريق أبي خلف الجمحي: أن عبيد بن عمير سأل عائشة نحوه وفيه إسماعيل بن مسلم المكي. وهو ضعيف. انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا يدل لفظ لها سابقون على هذا التفسير لأن سبق الشيء يدل على تقدم السابق على المسبوق فكيف يقول وهم يسبقون الخيرات وهذا لا يصح، قلت ولا أدري عدم الصحة من أي جهة وكأنه تخيل أن السابق يتقدم على المسبوق فكيف يتلاقيان لكأنه ينبغي أن يقول فكيف يقول هم ينالون الخيرات وهم لا يجامعونها لتقدمهم عليها إلا أن يكون قد سبقه القلم فكيف يدل وهم ينالون وهم يسبقون، وعلى كل تقدير فأين عدم الصحة؟ انتهى. الدر المصون.

(٢) قصيدة راثقة صوغتها أنت لها أحمد من بين البشر
راثقة: خالية من الحشو والتعقيد. وصوغتها - بالتشديد - للمبالغة. وأنت لها: أي أهل وكفو لها.
وأحمد: منادى. ومن بين البشر: متعلق بمحذوف حال، أي: منتخباً من بينهم، ويجوز أن أحمد
أفعل تفضيل، كذا قيل. ويروى:

أنت لها منذر من بين البشر داهية الدهر وصماء الغبير
للأعشى الحرمازي، وضمير لها مبهم يفسره قوله «داهية الدهر» أي الشديدة المهمة من شدائده.
والصماء الصلبة. والغبير - كسبب - بمعنى البقية، من غير إذا بقي، أو من الغبار، أو من الظلمة.
وأصل «صماء الغبير»: الحية تسكن في منقع قرب مويهة فلا تقرب. ويضرب بها المثل. والمعنى:
أنها تنشى فلا يهتدى إلى التخلص منها. ومنذر: منادى. وروي بدله: أحمد. وقيل: ضمير لها
للنبوة.

ينظر: لسان العرب (غبر)، وتاج العروس (غبر)، وتهذيب اللغة (١٢٣/٨)، وأساس البلاغة (غبر).

في ﴿يَهُ﴾: للبيت العتيق أو للحرم، كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد؛ لأننا أهل الحرم، والذي سوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت، وأنه لم تكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به، ويجوز أن يرجع إلى آياتي، إلا أنه ذكر؛ لأنها في معنى كتابي، ومعنى استكبارهم بالقرآن: تكذيبهم به استكباراً، ضمن مستكبرين معنى مكذبين، فعدى تعديته، أو يحدث لكم استماعه استكباراً وعتوّاً، فأنتم مستكبرون بسببه، أو تتعلق الباء بسامراً، أي: تستمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحراً وشعراً وسب رسول الله - ﷺ - أو يتهجرون، والسامر: نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع، وقرئ: «سمرأ، وسمارأ»، و«تهجرون وتهجرون»: من أهجرت في منطقة إذا أفحش، والهجر - بالضم -: الفحش، ومن هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذى، والهجر - بالفتح -: الهديان.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَوْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿الْقَوْلُ﴾: القرآن، يقول: أفلم يتدبروه؛ ليعلموا أنه الحق المبين فيصدقوا به وبمن جاء به، بل ﴿جَاءَهُمْ مَا لَوْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ﴾؛ فلذلك أنكروه واستبدعوه؛ كقوله: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦]، أو ليخافوا عند تدبر آياته وأقاصيصه مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين، أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم؛ حين خافوا الله فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه؟ وآباؤهم: إسماعيل وأعقابه من عدنان وقحطان، وعن النبي - ﷺ -: «لَا تَسْبُوا مُضَرَ وَلَا رَبِيعَةَ، فَإِنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ، وَلَا تَسْبُوا قُسَا، فَإِنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا، وَلَا تَسْبُوا الْحَارِثَ بْنَ كَعْبٍ وَلَا أَسَدَ بْنَ حُزَيْمَةَ وَلَا تَمِيمَ بْنَ مُرٍّ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا شَكَّكُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَلَا تَشْكُوا فِي أَنْ تَبِعَا كَانَ مُسْلِمًا (١٠٠١)»، وروي في

١٠٠١ - قال السهيلي في الروض الأنف (١٠/١): «وفي الحديث المروي: «لا تسبوا مضر ولا ربيعة؛ فإنهما كانا مؤمنين» ذكره الزبير بن بكار اهـ.

ورواه ابن سعد في الطبقات (٤٨/١) قال: أخبرنا خالد بن خدّاش أخبرنا عبد الله بن وهب قال: أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن عبد الله بن خالد قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تسبوا مضر، فإنه كان قد أسلم».

وكذا ذكره المتقي الهندي في كنز العمال رقم (٣٣٩٨٧)، وأخرج الحاكم في المستدرک (٤٥٠/٢) عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «كان تبع رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله عز وجل ذم قومه ولم يذمه». وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. اهـ. ووافقه الذهبي.

وروي أحمد (٣٤٠/٥) عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «لا تسبوا تبعاً؛ =

أَنَّ ضَبَّةَ كَانَ مُسْلِمًا، وَكَانَ عَلَى شَرْطَةِ سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ، ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا﴾: مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ نَسَبَهُ، وَحَلُولَهُ فِي سَطَةِ هَاشِمٍ، وَأَمَانَتِهِ، وَصَدَقَهُ، وَشَهَامَتِهِ، وَعَقْلَهُ، وَاتِّسَامَهُ بِأَنَّهُ خَيْرُ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ، وَالْمَخْطَبَةُ الَّتِي خَطَبَهَا أَبُو طَالِبٍ فِي نِكَاحِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، كَفَى بِرِغَائِهَا مُنَادِيًا.

الجنة: الجنون، وكانوا يعلمون أنه بريء منها وأنه أرجحهم عقلاً وأتقهم ذهنًا، ولكنه جاءهم بما خالف شهواتهم وأهواءهم، ولم يوافق ما نشأوا عليه، وسيط بلحومهم^(١)، ودمائهم من اتباع الباطل، ولم يجدوا له مردًا ولا مدفعًا؛ لأنه الحق الأبلج والصراف المستقيم، فأخذوا إلى البهت، وعولوا على الكذب من النسبة إلى الجنون والسحر والشعر.

فإن قلت: قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق.

قلت: كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافاً من توبيخ قومه، وأن يقولوا: صبأ وترك دين آبائه، لا كراهة للحق، كما يحكى عن أبي طالب^(٢).

فإنه قد كان أسلم^١ والدليمي في مسند الفردوس (١٦١/٥) رقم (٧٤٨٤)، ورواه الطبراني في الكبير (٢٠٣/٦) رقم (٦٠١٣)، قال في المجمع (٧٩/٨): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عمرو بن جابر وهو كذاب اهـ.

قال الحافظ: قلت اقتصر المخرج في عزو الجملة الأولى إلى السهيلي عن الزبير، وتتضمن الباقي. وقد أخرجه ابن سعد والبلاذري من طريق سعد بن أبي أيوب عن عبد الله بن خالد أنه بلغه أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا تسبوا مضر؛ فإنه كان مسلماً». وأما تبع فروى الفاكهي من طريق عمر بن جابر عن سهل بن سعد رفعه «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم». وأخرجه الحاكم من طريق ابن جريج عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «كان تبع رجلاً صالحاً. الحديث» موقوف. وقوله: والخطبة التي خطبها أبو طالب في نكاح خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - كفى برغائها منادياً: قلت نص له أيضاً. انتهى.

(١) قوله «وسيط بلحومهم» أي: وخطط. (ع)

(٢) قال محمود: «فإن قلت أكثرهم يعطي أن أقلهم لا يكره الحق، وكيف ذلك والكل كفر؟ قلت: فيهم من أبي الإسلام حذراً من مخالفة آبائه ومن أن يقال صبأ كأبي طالب، لا كراهة للحق» قال أحمد: وأحسن من هذا أن يكون الضمير في قوله: (وأكثرهم) على الجنس للناس كافة، ولما ذكر هذه الطائفة من الجنس بنى الكلام في قوله (وأكثرهم) على الجنس بجملته، كقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وكقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٢) ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ والنبي ﷺ جاء الناس كلهم وبعث إلى الكافة. ويحتمل أن يحمل الأكثر على الكل كما حمل القليل على النفي والله أعلم. وأما قول الزمخشري -: إن من تمادى على الكفر وآثر البقاء عليه تقليداً لآبائه «ليس كارهاً للحق - فردود» فإن من أحب شيئاً كره ضده، =

فإن قلت: يزعم بعض الناس أن أبا طالب صح إسلامه .

قلت: سبحان الله! كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله - ﷺ - حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس - رضي الله عنهما - ويخفى إسلام أبي طالب .

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۗ بَلْ أَنْزَلْنَاهُمْ بَذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٧١)

دل بهذا على عظم شأن الحق، وأن السموات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به، فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلاً، ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام، أو أراد أن الحق الذي جاء به محمد - ﷺ - وهو الإسلام، لو اتبع أهواءهم وانقلب شركاً، لجاء الله بالقيامة، ولأهلك العالم ولم يؤخر؛ وعن قتادة: أن الحق هو الله، ومعناه: ولو كان الله إلهاً يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي، لما كان إلهاً وكان شيطاناً، ولما قدر أن يمسك السموات والأرض، ﴿بَذِكْرِهِمْ﴾ أي: بالكتاب الذي هو ذكرهم، أي: وعظهم أو وصيتهم وفخرهم: أو بالذكر الذي كانوا يتمنونونه، ويقولون: لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكننا عباد الله المخلصين، وقرئ: «بذكراهم» .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا فَخَرَّاجٌ رَيْبٌ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴾ (٧٢)

قرئ: «خراجاً فخراج»، و«خرجاً فخرج»، و«خرجاً فخراج»: وهو ما تخرجه إلى الإمام من زكاة أرضك، وإلى كل عامل من أجرته وجعله، وقيل: الخرج: ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أدائه، والوجه: أن الخرج أخص من الخراج؛ كقولك: خراج القرية، وخرج الكردي؛ زيادة اللفظ لزيادة المعنى؛ ولذلك حسنت قراءة من قرأ: «خرجاً فخراج ربك»، يعني: أم تسألهم على هدايتك لهم قليلاً من عطاء الخلق، فالكثير من عطاء الخالق خير .

= فإذا أحبوا البقاء على الكفر فقد كرهوا الانتقال عنه إلى الإيمان ضرورة، والله أعلم. ثم انجر الكلام إلى استبعاد إيمان أبي طالب. وتحقيق القول فيه أنه مات على الكفر، ووجه ذلك بأنه أشهر عمومة النبي ﷺ، فلو كان قد أسلم لاشتهر إسلامه، كما اشتهر إسلام العباس وحمزة وأجدد لأنه أشهر، وللقائل بإسلامه أن يعتذر عن عدم شهرته بأنه إنما أسلم قبيل الاحتضار، فلم يظهر له مواقف في الإسلام يشتهر بها كما ظهر لغيره من عمومته عليه الصلاة والسلام. هذا والظاهر أنه لم يسلم. وحسبك دليلاً على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: سألت الله تعالى فيه، وأنه بعد ذلك لفي ضحضاح من نار يغلي رأسه من قدميه. فإن قيل: لا يلزم من ذلك موته على الكفر؛ لأن كثيراً من عصاة الموحدين يعذب بأكثر من ذلك. قلنا: من أثبت إسلامه ادعى أن ذلك كان قبيل الاحتضار، فالإسلام جب ما قبله، وتلك الدقيقة التي صار فيها من المسلمين لا تحتمل من المعاصي ما يوجب ذلك، والله أعلم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَا يُؤْتَوْنَ إِلَّا بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ

لَتَنكِوُنَ ﴿٧٤﴾﴾

قد ألزمهم الحجة في هذه الآيات وقطع معاذيرهم وعللهم بأن الذي أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله، مخبور سرّه وعلنه، خليق بأن يجتبي مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له^(١) حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم واستعطاء أموالهم، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام الذي هو الصراط المستقيم، مع إبراز المكنون من أدوائهم، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل، واستهتارهم^(٢) بدير الآباء الضلال من غير برهان، وتعللهم: بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة، وكراحتهم ٣٦/٢ ب للحق، وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر، يحتمل أن هؤلاء وصفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ﴿لَتَنكِوُنَ﴾ أي: عادلون عن هذا الصراط المذكور، وهو قوله: ﴿إِنَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وأن كل من لا يؤمن بالآخرة فهو عن القصد ناكب؛ لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة، ومنع الميرة من أهل مكة وأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز^(٣)، جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ لَهُ: أَنشِدْكَ اللَّهُ وَالرَّجِمَ، أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟ فَقَالَ: بَلَى، فَقَالَ: قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ، وَالْأَبْنَاةَ بِالْجُوعِ (١٠٠٢).

١٠٠٢ - رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٧٠/١١) رقم (١٢٠٣٨) حدثنا عيسى بن القاسم الصيدلاني البغدادي ثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم النيسابوري ثنا علي بن الحسين بن واقد حدثني أبي عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان بن حرب إلى النبي - ﷺ - فقال: يا محمد، نشدتك الله والرحم قد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَدَابِ فَمَا أَصْغَوْا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ ﴿٧٤﴾. وابن حبان في صحيحه (٤٢٨/٥) رقم (١٧٥٣ - موارد)، والنسائي في التفسير (٩٨/٢ - ٩٩) رقم (٣٧٢)، وابن جرير الطبري في التفسير (٢٣٥/٩ - ٢٣٦) رقم (٢٥٦٣٢)، وعزاه الزيلعي للبيهقي في الدلائل والواحد في أسباب النزول، وذكره البغوي في التفسير (٣١٤/٣)، قال الهيثمي في المعجم (٧٦/٧): «رواه الطبراني وفيه علي بن الحسين بن واقد وثقه النسائي وغيره وضعفه أبو حاتم» اهـ.

- (١) قوله «لم يعرض» لعله: لم يعرض له جنون. (ع)
- (٢) قوله «واستهتارهم بدين الآباء الضلال» في الصحاح: فلان مستهتر بالشراب، أي: مولع به لا يبالي ما قيل فيه. (ع)
- (٣) قوله «حتى أكلوا العلهز» في الصحاح «العلهز» بالكسر: طعام كانوا يتخذونه من الدم وبر البعير في سني المجاعة. (ع)

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤَ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٧﴾

والمعنى: لو كشف الله عنهم هذا الضر، وهو: الهزال والقحط الذي أصابهم برحمته عليهم ووجدوا الخصب، لارتدوا إلى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله - ﷺ - والمؤمنين وإفراطهم فيها، ولذهب عنهم هذا الإيلاس، وهذا التملق بين يديه ويسترحمونه، واستشهد على ذلك بأننا أخذناهم أولاً بالسيوف، وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسراهم، فما وجدت منهم بعد ذلك استكانة ولا تضرع، حتى فتحننا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من الأسر والقتل وهو أطم العذاب، فألبسوا الساعة وخضعت رقابهم، وجاء أعتاهم وأشدهم شكيمة في العناد يستعطفك، أو محناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤي فيهم لين مقادة وهم كذلك، حتى إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون؛ كقوله: ﴿ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (الروم: ١٢)، ﴿ لَا يُفَعَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴾ (الزخرف: ٧٥)، والإيلاس: اليأس من كل خير، وقيل: السكوت مع التحير.

فإن قلت: ما وزن استكان؟

قلت: استفعل من الكون^(١)، أي: انتقل من كون إلى كون، كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال، ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه، كما جاء [من الوافر]:

(١) قال محمود: «استكان استفعل من الكون، أي: انتقل من كون إلى كون، كما يقال: استحال، إذا انتقل من حال إلى حال» قال أحمد: هذا التأويل أسلم وأحق من تأويل من اشتقه من السكون وجعله افتعل، ثم أشبعت الفتحة فتولدت الألف كتولدها في قوله:

ينباع من ذفري غضوب جسرة

فإن هذا الإشباع ليس بفضيح، وهو من ضرورات الشعر، فينبغي أن ترفع منزلة القرآن عن ورود مثله فيه، لكن تنظير الزمخشري له باستحال: وهم، فإن استكان على تأويله أحد أقسام استفعل، الذي معناه التحول، كقولهم: استحجر الطين، واستنوق الجمل. وأما استحال فثلاثيه حال يحول، إذا انتقل من حال إلى حال، وإذا كان الثلاثي يفيد معنى التحول لم يبق لصيغة استفعل فيها أثر، فليس استحال من استفعل للتحول - ولكنه من استفعل بمعنى فعل، وهو أحد أقسامه، إذ لم يزد السداسي فيه على الثلاثي معنى، والله أعلم. ثم نعود إلى تأويله فنقول: المعنى عليه: فما انتقلوا من كون التكبر والتجبر والاعتياص إلى كون الخضوع والضراعة إلى الله تعالى. ولقائل أن يقول: استحال يفيد على التأويل المذكور الانتقال من كون إلى كون، فليس حمله على أنه انتقال عن التكبر =

..... بِمُنْتَزَاحٍ^(١)

فإن قلت: هلا قيل: وما تضرعوا، أو: فما يستكينون؟

قلت: لأن المعنى: محناهم فما وجدت منهم عقيب المحنة استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يستكينوا ويتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد، وقرئ: «فتحنا».

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

إنما خصَّ السمع والأبصار والأفئدة؛ لأنه يتعلق بها من المنافع الدينية والدينية ما لا يتعلق بغيرها، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم، ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا آغَى عَنْهُمْ سَمْعَهُمْ وَلَا أَبْصَرَهُمْ وَلَا أَفْقِدْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، إذ كانوا

= إلى الخضوع بأولى من العكس. وترى هذه الصيغة لا تفهم إلا أحد الانتقاليين، فلو كانت مشتقة من مطلق الكون لكانت مجملة محتملة للانتقاليين جميعاً. والجواب أن أصلها كذلك على الإطلاق، ولكن غلب العرف على استعمالها في الانتقال الخاص كما غلب في غيرها، والله أعلم. وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير رحمه الله يذكر لي أنه لما دخل بغداد زمن الإمام الناصر رضي الله عنه، أظهر من جملة كراماته له: أن جمع له الوزير جميع علماء بغداد وعقد بهم محفلاً للمناظرة، وكان يذكر لي أن مما انجر الكلام إليه حينئذ هذه الآية، وأن أحدهم وكان يعرف بالأجل اللغوي خصه الوزير بالسؤال عنها فقال: وهو مشتق من قول العرب: كنت لك إذا خضعت، وهي لغة هذلية فاستحسن منه ذلك. قال أحمد: وقد وقفت عليها بعد ذلك في غريب أبي عبيد العروي وهو أحسن محامل الآية وأسلمها، والله أعلم. وعلى هذا يكون من استعمل بمعنى فعل، كقولهم: استقر واستعلى، وحال واستحال على ما مر. وقد قال لي بعضهم يوماً: لم لا تجعله على هذا التأويل من استعمل المبني للمبالغة. مثل استحسر واستعصم من حسر وعصم، فقلت: لا يسعني ذلك؛ لأن المعنى ياباه، وذلك أنها جاءت في النفي والمقصود منها ذم هؤلاء بالجفوة والقسوة وعدم الخضوع، مع ما يوجب نهاية الضراعة من أخذهم بالعذاب، فلو ذهبت إلى جعلها للمبالغة أفادت نقص المبالغة، لأن نفي الأبلغ أدنى من نفي الأدنى، وكأنهم على ذلك ذموا بنفي الخضوع الكثير، وأنهم ما بلغوا في الضراعة نهايتها، وليس الواقع؛ فإنهم ما اتسموا بالضراعة ولا بلمظة منها، فكيف تنفي عنهم النهاية الموهمة لحصول البداية، والله أعلم.

(١) قوله «كما جاء بمنتزاح» أي في قوله:

وأنت من الغوائل حين ترمي
وعن ذم الرجال بمنتزاح
أهد عليان.

قلت: وقد تقدم شرح هذا الشاهد.

يجحدون بآيات الله، ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وألاً يجعل له نذ ولا شريك، أي: تشكرون شكراً قليلاً، و﴿مَنَا﴾: مزيدة للتأكيد بمعنى: حقاً، ﴿ذُكَّكُمْ﴾: خلقكم وبثكم بالتناسل، ﴿وَأَلَيْهِ﴾: تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم، ﴿وَأَلَهُ أَخْتَلَفُ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ أي: هو مختص به وهو متوليه، ولا يقدر على تصريفهما غيره، وقرئ: «يعقلون»: بالياء عن أبي عمرو.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) قَالُوا أَيْدَا مِثْنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ
 ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

أي: قال أهل مكة كما قال الكفار قبلهم، الأساطير: جمع أسطار: جمع سطر؛ قال رؤبة [من الرجز]:

إِنِّي وَأَسْطَارِ سَطْرُنْ سَطْرًا^(١)

وهي: ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له، وجمع أسطورة أوفق.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ

(١) إني وأسطار سطرنا سطرًا لقائل: يا نصر نصرنا نصرًا لرؤية بن العجاج. والمراد بالأسطار: الكتابة، وهي جمع سطر بالتحريك، وأصله مصدر كالساكن الوسط. وسطرن: مبني للمجهول. وسطرًا: مصدر. ولقائل: خبر «إني» وما بينهما جملة قسمية اعتراضية. ونصر: مبني على الضم، وهو ابن سيار ملك خراسان. ونصر الثاني توكيد لفظي، مرفوع على اللفظ. والثالث كذلك نصب على المحل لأنه كان مفرداً معرفة لأنه تابع. أو هو مصدر نائب عن فعله. أي انصرتي نصرًا. وقيل «نصر» الثاني بالضاد المعجمة على أنه علم لصاحب نصر الأول، فهو على حذف العاطف. عن أبي عبيدة: والمنقول أن الذي بالضاد المعجمة هو الثالث، كان حاجباً لنصر، واشتكاه له الشاعر فنصبه على الإغراء. والمعنى على الأول: وحق الكتاب المسطور إني لمستغيث به لا بغيره.

ينظر ديوانه ص ١٧٤، ولسان العرب (نصر)؛ وتاج العروس (نصر)، ومقاييس اللغة ٤/٤٣٦، ومجمل اللغة ٤/٤٠٨، وخرزاة الأدب ٢/٢١٩، والخصائص ١/٣٤٠، والدرر ٤/٢٢، وشرح شواهد الإيضاح ص ٢٤٣، وشرح المفصل ٢/٣، والكتاب ٢/١٨٥، ١٨٦، ولذي الرمة في شرح شذور الذهب ص ٥٦٤، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (سطر)، وتهذيب اللغة ١٢/٣٢٧، وتاج العروس (سطر)، (نصر)، (الياء)، وأسرار العربية ص ٢٩٧، والأشباه والنظائر ٤/٨٦، والدرر ٦/٢٦، ومعني اللبيب ٢/٣٨٨، والمقاصد النحوية ٤/٢٠٩، والمقتضب ٤/٢٠٩، وهمع الهوامع ١/٢٤٧، ٢/١٢١.

أَفَلَا نُنْفِقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

أي: أجيبيوني عما استعلمتكم منه^(١) إن كان عندكم فيه علم، وفيه استهانة بهم ونجويز لفرط جهالتهم بالديانات: أن يجهلوا مثل هذا الظاهر البين، وقرئ: «تذكرون»: بحذف التاء الثانية^(٢)، ومعناه: أفلا تتذكرون فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً، كان قادراً على إعادة الخلق، وكان حقيقاً بالأشياء يشرك به بعض خلقه في الربوبية، قرئ: «الأول»: باللام لا غير، والأخيران: باللام، وهو هكذا في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام، وبغير اللام: وهو هكذا في مصاحف أهل البصرة، فباللام على المعنى؛ لأن قولك من ربه، ولمن هو: في معنى واحد، وبغير اللام على اللفظ، ويجوز قراءة الأول بغير لام، ولكنها لم تثبت في الرواية، ﴿أَفَلَا نُنْفِقُونَ﴾: أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله، أجرت فلاناً على فلان: إذا أغثته منه ومنعته، يعني: وهو يغيث من يشاء ومن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحداً، ﴿تُسْحَرُونَ﴾: تخدعون عن توحيدهِ وطاعته، والخادع: هو الشيطان والهوى.

﴿بَلْ آتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩١﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩٢﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وقرئ: «أنتيتهم وأنتيتهم»: بالفتح والضم، ﴿بِالْحَقِّ﴾: بأن نسبة الولد إليه محال والشرك باطل، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً، ﴿لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾: لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقهِ الذي خلقه واستبد به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك الآخرين، ولغلب بعضهم بعضاً؛ كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون، ٢/٣٧ وأحياناً لم تروا أثراً لتمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء.

فإن قلت: إذا: لا تدخل إلا على كلام هو جزء وجواب، كيف وقع قوله: لذهب جزء وجواباً، ولم يتقدمه؛ شرط ولا سؤال سائل؟

قلت: الشرط محذوف تقديره: ولو كانت معه آلهة. وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وَمَا

(١) قوله «عما استعلمتكم منه» لعله «عنه». (ع)

(٢) قوله «وقرئ» (تذكرون) بحذف التاء الثانية» يفيد أن القراءة المشهورة (تذكرون) بالتحديد. (ع)

كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ ﴿المؤمنون: ٩١﴾، عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: من الأنداد والأولاد، ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ﴾: بالجرّ صفة لله، وبالرفع: خبر مبتدأ محذوف.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَيَّ أَن تُرِيكَ مَا نَعُدُّهُمْ لَقَدْ رُونَ ﴿٩٥﴾﴾

ما والنون: مؤكداً، أي: إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي﴾: قرينا لهم ولا تعذبني بعذابهم، عن الحسن: أخبره الله أن له في أمته نعمة ولم يخبره أفي حياته أم بعد موته، فأمره أن يدعو بهذا الدعاء.

فإن قلت: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين، حتى يطلب ألا يجعله معهم؟

قلت: يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله؛ إظهاراً للعبودية، وتواضعاً لربه، وإخباراً له، واستغفاره - ﷺ - إذا قام من مجلسه سبعين مرة أو مائة مرة لذلك، وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما -: «وليتكم ولست بخيركم» (١٠٠٣) كان يعلم أنه خيرهم، ولكن المؤمن يهضم نفسه، وقرئ: «إما ترثنهم»: بالهمز^(١)، مكان تريني، كما قرئ: «فإما ترثن»، و«الترؤن الجحيم»، وهي ضعيفة، وقوله: (رب): مرتين قبل الشرط وقبل الجزاء، حث على فضل تضرع وجوار، كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك، فليل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد إن تأملت، فما وجه هذا الإنكار؟

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ مَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

١٠٠٣ - رواه ابن هشام في السيرة: عن ابن إسحاق حدثني الزهري قال: حدثني أنس بن مالك قال: لما بويج أبو بكر... فذكر حديثاً طويلاً وفيه. ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... إلخ. كما في السيرة (٣٦٩/٤) رقم (٢١٠٠).

ورواه ابن سعد في الطبقات (١٨٢/٣) عن عروة عن أبيه مرسلًا. وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٤٠٦/٢) للدارقطني في كتابه المؤلف والمختلف وفي غرائب مالك وأبي عبيد في كتاب الأموال والواقدي في آخر كتاب المغازي.

(١) قوله «وقرئ» إما ترثنهم بالهمزة» في نسخة أخرى: إما ترثني بالهمز، كما قرئ... إلخ». (ع)

«وأبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة؛ لما فيه من التفضيل، كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، والمعنى: الصفع عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفع والإحسان وبذل الاستطاعة فيه: كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة، وهذه بقضية قوله: ﴿يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: هي شهادة أن لا إله إلا الله، والسيئة: الشرك، وعن مجاهد: السلام: يسلم عليه إذا لقيه، وعن الحسن: الإغضاء والصفح، وقيل: هي منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة؛ لأنّ المداراة محثوث عليها ما لم تؤدّ إلى ثلم دين وإزراء بمروءة، ﴿يَمَّا يَصِفُونَ﴾: يما يذكرونه من أحوالك بخلاف صفتها، أو بوصفهم لك وسوء ذكركم، والله أعلم بذلك منك وأقدر على جزائهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨)

الهمز: النخس، والهمزات: جمع المرّة منه، ومنه: مهماز الرائض، والمعنى: أن الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها، كما تهزم الراضة الدواب حثاً لها عسى المشي، ونحو الهمز: الأرز؛ في قوله تعالى: ﴿تَوَزُّؤُهُمْ أَرْزًا﴾: أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه، المكرّر لندائه، وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً ويحوموا حوله،

(١) قال محمود: «هذا أبلغ من أن يقال: ادفع بالحسنة السيئة، لما فيه من التفضيل كأنه قال: ادفع بالحسنى السيئة، والمعنى: الصفع عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفع والإحسان وبذل الاستطاعة فيه: كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة، وهذه قضية قوله: بالتي هي أحسن، قال أحمد: ما ذكره تقريراً للمفاضلة عبارة عن الاشتراك في أمر والتميز بغيره، ولا اشتراك بين الحسنّة والسيئة؛ فإنهما ضدان متقابلان، فكيف تتحقق المفاضلة؟ قلت: المراد أن الحسنّة من باب الحسنات، أزيد من السيئة من باب السيئات، فتجيء المفاضلة مما هو أعم من كون هذه حسنة وهذه سيئة. وذلك شأن كل مفاضلة بين ضدين، كقولهم: العسل أحلى من الخل، يعنون أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة. وليس لأن بينهما اشتراكاً خاصاً. ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعب الماجن أنه قال: نشأت أنا والأعمش في حجر فلان، فما زال يعلو وأسفل حتى استوتينا، بمعنى أنهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية: أشعب بلغ الغاية على السفلة. والأعمش: بلغ الغاية على العلية، هذا تفسير كلامه عن نفسه، ونعود إلى الآية فنقول: هي تحتمل وجهاً آخر من التفضيل أقرب متناولاً: وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التي تدفع بها السيئة، فإنها قد تدفع بالصفح والإغضاء، ويقنع في دفعها بذلك، وقد يزداد على الصفع الإكرام وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة، فهذه الأنواع من الدفع كلها دفع بحسنة، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة، لاشتغالها على عدد من الحسنات، فأمر النبي ﷺ بأحسن الحسنات في دفع السيئة، فعلى هذا تجري المفاضلة على حقيقتها من غير حاجة إلى تأويل، والله أعلم. فتأمله فإنه حسن جداً.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - : عند تلاوة القرآن، وعن عكرمة: عند النزح.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿حَقَّ﴾: يتعلق بـيصفون، أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقف، والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم، مستعيناً بالله على الشيطان أن يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم، أو على قوله: وإنهم لكاذبون^(١): خطاب الله بلفظ الجمع للتعظيم؛ كقوله [من الطويل]:

فَإِنْ شِئْتُ حَرَمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمْ^(٢)

وقوله [من الطويل]:

أَلَا فَأَرْحَمُونِي يَا إِلَهَ مُحَمَّدٍ^(٣)

إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر، أدركته الحسرة على ما فرط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه، فسأله ربه الرجعة، وقال: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾: في الإيمان الذي تركته، والمعنى: لعلي آتي بما تركته من الإيمان، وأعمل فيه صالحاً، كما تقول: لعلي أبني على أس، تريد: أأسس أساً وأبني عليه، وقيل: فيما تركت من المال، وعن النبي - ﷺ -: «إِذَا عَايَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا: نُرْجِعُكَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: إِلَى دَارِ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ! بَلْ قُدُومًا إِلَى اللَّهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: رَبِّ ارْجِعُونِ» (١٠٠٤)،

١٠٠٤ - أخرجه ابن جرير (٢٤٢/٩) حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثنى حجاج عن ابن جريج قال: قال النبي - ﷺ - لعائشة: «إِذَا عَايَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا: نُرْجِعُكَ إِلَى الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: إِلَى دَارِ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ فَيَقُولُ بَلْ قُدُومًا إِلَى اللَّهِ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَقُولُ: نُرْجِعُكَ؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا =

(١) قوله «أو على قوله: وإنهم لكاذبون» لعله عطف على المعنى، كأنه قال فيما مر: حتى رد على قوله (يصفون). قال هنا: أو على قوله: (وإنهم لكاذبون). (ع)

(٢) تقدم.

(٣) ألا فـأرحموني يا إله محمد فإن لم أكن أهلاً فأنت له أهل

«ألا» استفتاحية دالة على الاهتمام بما يعقبها من الكلام، وخاطب الإله الواحد الأحد بخطاب الجمع جرياً على عادة العرب من خطاب السادة والملوك بذلك تعظماً. وقيل: هو إشارة إلى تكرار الفعل للتوكيد، كأنه قيل: أرحمني أرحمني أرحمني، وإضافته إلى محمد ﷺ للتوسل به إلى الله عز وجل، فإن لم أكن أهلاً لهذا الطلب أو المطلوب من الرحمة والرفق، فأنت يا الله أهل له. ينظر: البحر (٤٢١/٦)، وروح المعاني (٦٣/١٨)، والدر المصون (٢٠٠/٥).

﴿ كَلَّا ﴾: ردع عن طلب الرجعة، وإنكار واستبعاد، والمراد بالكلمة: الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض؛ وهي قوله: ﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾، ﴿ هُرِّقَابِلَهَا ﴾: لا محالة، لا يخليها ولا يسكت عنها؛ لاستيلاء الحسرة عليه وتسلب الندم، أو هو قائلها وحده لا يجاب إليها ولا تسمع منه، ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ والضمير: للجماعة، أي: أمامهم حائل بينهم وبين الرجعة إلى يوم البعث، وليس المعنى: أنهم يرجعون يوم البعث؛ وإنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١١٦)

الصور - بفتح الواو -: عن الحسن، والصور - بالكسر والفتح -: عن أبي رزين، وهذا دليل لمن فسر الصور بجمع الصورة، ونفى الأنساب: يحتمل أن التقاطع يقع بينهم، حيث يتفرقون معاقبين ومثابين، ولا يكون التواصل بينهم والتألف إلا بالأعمال، فتلغوا الأنساب وتبطل، وأنه لا يعتد بالأنساب؛ لزوال التعاطف والتراحم بين الأقارب؛ إذ يفتر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه، وعن ابن مسعود: «ولا يتساءلون»: بإدغام التاء في السين.

فإن قلت ٣٧/٢: قد ناقض هذا ونحو قوله: ﴿ وَلَا يَتَنَلَّ حَمِيمًا ﴾ [العارج: ١٠]، قوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصفات: ٢٧] (١)، وقوله: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، فكيف التوفيق بينهما؟

قلت: فيه جوابان:

أحدهما: أن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة، ففيه أزمنة وأحوال مختلفة يتساءلون ويتعارفون في بعضها، وفي بعضها لا يفطنون لذلك لشدة الهول والفرع (٢).

= فيما تركت الآية.

قال الزيلعي (٤٠٧/٣): «وذكره الثعلبي عن عائشة مرفوعاً من غير سند» اهـ.

(١) قال محمود: «إن قلت قد ناقض هذا قوله: فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» قال أحمد: يجب أن لا يسلك هذا المسلك في إيراد الأسئلة عن فوائد الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وسؤال الأدب أن يقال: قصر فهمي عن الجمع بين هاتين الآيتين، فما وجهه؟ ولو سألت سائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن شيء من كتاب الله تعالى بهذه الصيغة لأوجع ظهره بالدرة.

(٢) عاد كلامه إلى جواب السؤال. قال: «وجه الجمع بينهما أن يحمل ذلك على اختلاف موقف القيامة» قال أحمد: وكثيراً ما ينتهز الزمخشري الفرصة في إنكار الشفاعة ويشمر ذيله للرد على =

والثاني: أن التناكر يكون عند النفخة الأولى، فإذا كانت الثانية، قاموا فتعارفوا وتساءلوا.

﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١٤﴾﴾

عن ابن عباس: الموازين: جمع موزون، وهي الموزونات من الأعمال، أي: الصالحات، التي لها وزن وقدر عند الله؛ من قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾: بدل من خسروا أنفسهم، ولا محل للبدل والمبدل منه؛ لأن الصلة لا محل لها، أو خبر بعد خبر لأولئك، أو خبر مبتدأ محذوف، ﴿تَلْفَحُ﴾: تسفع، وقال الزجاج: التلفح والنفح واحد، إلا أن التلفح أشد تأثيراً، والكلوح: أن تتقلص الشفتان وتشمرا عن الأسنان؛ كما ترى الرؤوس المشوية، وعن مالك بن دينار: كان سبب توبة عتبة الغلام أنه مر في السوق برأس أخرج من التنور فغشي عليه ثلاثة أيام ولياليهن، وروي عن النبي - ﷺ - أنه قال: «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقْلَصُ شَفْتَهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفْتَهُ السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَهُ» (١٠٠٥)، وقرئ: «كلحون».

﴿أَلَمْ تَكُنْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١١٧﴾ قَالَ أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١١٨﴾﴾

١٠٠٥ - رواه الترمذي (٣٢٨/٥) كتاب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون حديث (٣١٧٦) حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن يزيد بن شجاع عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي - ﷺ - قال: «وهم فيها كالحون» قال: تشويه النار، فتقلص شفته العالية حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرتة. وأحمد في المسند (٨/٣) والحاكم (٢/٣٩٥)، وأبو يعلى في مسنده (٥١٦/٢) رقم (١٣٦٧)، وذكره السيوطي في الدر (٣١/٥)، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية. قال الحافظ: أخرجه الترمذي وأحمد والبيهقي في الشعب من رواية أبي السمح عن الهيثم بن أبي سعيد. انتهى.

= القائلين بها إذا انتهى إلى مثل قوله: ﴿وَلَا تُنْعَمُهَا شَفْعَةٌ﴾، ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾. ويتغافل حينئذ عن طريق الجمع بين ما ظاهره نفي الشفاعة وبين ما ظاهره ثبوتها، بحمل الأمر على اختلاف الأحوال في القيامة، والله الموفق.

﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا ﴾: ملكتنا، من قولك: غلبني فلان على كذا: إذا أخذته منك وامتلكه، والشقاوة: سوء العاقبة التي علم الله أنهم يستحقونها بسوء أعمالهم، قرئ: (شقوتنا)، وشقاوتنا يفتح الشين وكسرها فيهما، ﴿ أَخْشَرْنَا فِيهَا ﴾: ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا زجرت، يقال: خسا الكلب وخسا بنفسه^(١)، ﴿ وَلَا تَكَلِّمُون ﴾: في رفع العذاب، فإنه لا يرفع ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون، وعن ابن عباس: إن لهم ست دعوات: إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ فيجابون: ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾، فينادون ألفاً: ﴿ رَبَّنَا أَمْنَا أَتَيْنَنَّ ﴾، فيجابون: ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَيْتُمْ إِيَّاهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحَدَّمُ كَعَفَرْتُمْ ﴾، فينادون ألفاً: ﴿ بِتَكَلُّفٍ لِيَقِضَ عَلَيْنَا رُبُّكَ ﴾، فيجابون: ﴿ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴾، فينادون ألفاً: ﴿ رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا صَاحِبًا ﴾، فيجابون: ﴿ أَوْلَمْ تَكُونُوا ﴾، فينادون ألفاً: ﴿ رَبَّنَا أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾، فيجابون: ﴿ أَوْلَمْ نَعْمَرْكُمْ ﴾، فينادون ألفاً: ﴿ رَبِّ أَرْجِعُونَا ﴾، فيجابون: ﴿ أَخْشَرْنَا فِيهَا ﴾.

﴿ إِنَّكُمْ كَانَفِرُونَ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(١١٩)
 فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٢٠﴾ إِي جَزَيْتُهُمَّ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا
 أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآرِسُونَ ﴿١٢١﴾

في حرف أبي: أنه كان فريق، بالفتح، بمعنى: لأنه.

السخري - بالضم والكسر -: مصدر سخر كالسخر، إلا أن في ياء النسب زيادة قوة في الفعل، كما قيل: الخصوصية في الخصوص، وعن الكسائي والفراء: أن المكسور من الهاء، والمضموم من السخرة والعبودية، أي: تسخروهم واستعبدوهم، والأول: مذهب الخليل وسيبويه، قيل: هم الصحابة، وقيل: أهل الصفة خاصة، ومعناه: اتخذتموهم هزوا وتشاغلتم بهم ساخرين، ﴿ حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ﴾: بتشاكلهم بهم على تلك الصفة، ﴿ ذِكْرِي ﴾: فتركتموه، أي: تركتم أن تذكروني فتخافوني في أوليائي، وقرئ: (أنهم): بالفتح، فالكسر، استئناف، أي: قد فازوا؛ حيث صبروا، فجزوا بصبرهم أحسن الجزاء، وبالفتح على أنه مفعول جزيتهم؛ كقولك: جزيتهم فوزهم.

﴿ قُلْ كَمْ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٢٢﴾ قَالُوا لَيْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَلِّ الْعَادِينَ ﴿١٢٣﴾ قُلْ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(١) قوله «يقال خسا الكلب... إلخ» في الصحاح: خسات الكلب وخسا بنفسه: يتعدى ولا يتعدى.
 (ع)

﴿قُلْ﴾: في مصاحف أهل الكوفة، «وقل»: في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام، ففي (قال): ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة، وفي (قل): ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

استقصروا مدة لبثهم في الدنيا بالإضافة إلى خلودهم ولما هم فيه من عذابها؛ لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مرّ عليه من أيام الدعة إليها، أو لأنهم كانوا في سرور، وأيام السرور قصار، أو لأنّ المنقضي في حكم ما لم يكن، وصدقهم الله في تقاليمهم لسني لبثهم في الدنيا ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها، وقرئ: ﴿فسل العادين﴾، والمعنى: لا نعرف من عدد تلك السنين إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم؛ لما نحن فيه من العذاب، وما فينا أن نعدّها، فسل من فيه أن يعدّ، ومن يقدر أن يلقي إليه فكره، وقيل: فسل الملائكة الذين يعدّون أعمار العباد ويحصون أعمالهم، وقرئ: «العادين»: بالتخفيف، أي: الظلمة؛ فإنهم يقولون كما نقول، وقرئ: «العادين»، أي: القدماء المعمرين؛ فإنهم يستقصرونها، فكيف بمن دونهم؟ وعن ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِحِينَ ﴿١١٨﴾

﴿عَبَثًا﴾: حال، أي عابثين؛ كقوله: ﴿لَعِينٌ﴾ [الأنبياء: ١٦]. أو مفعول له، أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك، وهي: أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم نرجعكم من دار التكليف ١٣٨/٢ إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾: معطوف على: ﴿أَنَّكُمْ خَلَقْنَاكُمْ﴾، ويجوز أن يكون معطوفاً على: (عبثاً)، أي: للعبث، ولترككم غير مرجوعين، وقرئ: (ترجعون): بفتح التاء^(١)، ﴿الْحَقُّ﴾: الذي يحق له الملك؛ لأن كل شيء منه وإليه، أو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وصف العرش بالكرم؛ لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين، كما يقال: بيت كريم: إذا كان ساكنوه كراماً، وقرئ: «الكريم»: بالرفع؛ ونحوه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ [البروج:

(١) قوله «وقرئ» ترجعون بفتح التاء» عبارة النسفي: بفتح التاء وكسر الجيم. (ع)

[١٥]، ﴿لَا بُرْهَانَ لَكُمْ بِهِ﴾؛ كقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَنًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، وهي: صفة لازمة؛ نحو قوله: ﴿يَطِيرُ بِمَنَاحِيهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، جيء بها للتوكيد لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان^(١)، ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء؛ كقولك: مر أحسن إلى زيد لا أحق بالإحسان منه، فالله مثيبه، وقرئ: أنه لا يفلح بفتح الهمزة، ومعناه: حسابه عدم الفلاح، والأصل: حسابه أنه لا يفلح هو، فوضع الكافرون موضع الصمير؛ لأن (من يدع): في معنى الجمع؛ وكذلك: (حسابه.. إنه لا يفلح) في معنى حسابهم... إنهم لا يفلحون.

جعل فاتحة السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وأورد في خاتمتها: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ﴾، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنُونَ بِشَرِّهِ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ وَمَا تَقَرَّرَ بِهِ عَيْنُهُ عِنْدَ نُزُولِ مَلَكِ الْمَوْتِ» (١٠٠٦).

وروي: «أَنَّ أَوَّلَ سُورَةٍ قَدْ أَفْلَحَ وَآخِرُهَا مِنْ كِنُوزِ الْعَرْشِ، مِنْ عَمَلٍ بِثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِهَا، وَاتَّعَظَ بِأَرْبَعِ آيَاتٍ مِنْ آخِرِهَا: فَقَدْ نَجَا وَأَفْلَحَ» (١٠٠٧).

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : كان رسول الله - ﷺ - إذا نزل عليه الوحي يسمع عنده دوي كدوي النحل، فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يده وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْظِمْنَا وَلَا تُخْرِمْنَا، وَأَثِرْنَا وَلَا تُؤَثِّرْ عَلَيْنَا، وَأَزْصِ عَنَّا

١٠٠٦ - تقدم برقم (٣٤٦).

١٠٠٧ - قال الزيلعي (٤٠٩/٢): «غريب جداً».

وقال ابن حجر: «لم أجده».

(١) قال محمود: «لا برهان له به: إما صفة لازمة، أو كلام معترض لأن في الصفة إفهاماً لأن إليها سوى الله يمكن أن يكون به برهان» قال أحمد: إن كان صفة فالمقصود بها التهمك بمدعي إله مع الله، كقوله: ﴿يَمَّا أَتَرَ كُفُورًا بِأَلْفِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَنًا﴾ فنفى إنزال السلطان به وإن لم يكن في نفس الأمر سلطان لا منزل ولا غير منزل، ومن جنس مجيء الجملة بعد النكرة وصرافها عن أن تكون صفة لها: ما قدمه عند قوله تعالى: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْجِدًا لَا يُخَلِّفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ حيث أعرب الزمخشري موعداً مصدراً ناصباً لمكانا سوى، واعترضه بأن المصدر الموصوف لا يعمل إلا على كره، واعتذرت عنه بصرف الجملة على أن تكون صفة وجعلها معترضة مؤكدة لمعنى الكلام، والله أعلم.

وَأَرْضِنَا» ثم قال: «لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ عَشْرَ آيَاتٍ مَنَ أَقَامَهُنَّ، دَخَلَ الْجَنَّةَ» ح ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر (١٠٠٨).

١٠٠٨ - أخرجه الترمذي (٣٢٦/٥) كتاب التفسير باب ومن سورة المؤمنون حديث (٣١٧٣)، وأحمد (٣٤/١)، والحاكم (٣٩٢/٢) في المستدرک تفسیر سورة المؤمنون، وعبد الرزاق في المصنف (٣٨٣/٣ - ٣٨٤) رقم (٦٠٣٨)، وعبد بن حميد في مسنده رقم (١٥ - منتخب)، والعقيلي في الضعفاء (٤٦٠/٤) ترجمة يونس بن سليم، وعزاه الزيلعي للبخاري وإسحاق بن راهويه في مسنديهما. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» اهـ.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الترمذي، والنسائي، وعبد الرزاق، والحاكم، وأحمد، وإسحاق، وابن أبي شيبة، وعبد، كلهم من رواية يونس بن سليم الصنعاني عن يونس عن الزهري عن عروة عن عبد الرحمن بن عبد عن عمر. قال النسائي: هذا حديث منكر، تفرد به يونس بن سليم ولا أعرفه. وقال ابن أبي حاتم عن أبيه: لا أعرفه ولا أعرف هذا الحديث عن الزهري وقال الترمذي. وقال العقيلي: لا يتابع عليه يونس بن سليم ولا يعرف إلا به، وبنحوه قال ابن عدي. وسئل عبد الرزاق عن شيخه يونس بن سليم هذا فقال: أظنه لا شيء. انتهى.